

الخلافة الفاطمية قبيل الغزو الصليبي

عبد الكريم الشحاوي^٥

أولاً - الحالة السياسية وأزمة الخلافة

شهدت مصر الفاطمية منذ منتصف القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي تغيرات حادة طالت، في العمق والامتداد، مختلف جوانب الحياة العامة. ففي المستوى السياسي أخذت تتطور ملامح بنية سلطوية جديدة تحوّل فيها مركز القرار السياسي إلى مواقع إدارية كانت فيما مضى مجرد أدوات تنفيذية. ولم يعد الخليفة الحاكم الأعلى في البلاد، وإن بقي يُنظر إليه بصفته رمزاً دينياً تستمدّ منه السلطة السياسية شرعيتها واستمراريتها، كما هو الحال تماماً مع الخلافة العباسية في بغداد. ويمكن النظر إلى مدة خلافة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) على أنها مرحلة انتقالية بين عصرين متميزين، الأول منهما يمتدّ من دخول جيش المعزّ لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) بقيادة جوهر الصقلي^(١) مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وحتى وفاة الظاهر بالله

(٥) كان المغفور له عبد الكريم الشحاوي، أستاذ التاريخ في ثانويات دمشق، يعدّ أطروحة للماجستير بعنوان الخلافة الفاطمية والحروب الصليبية (١٠٩٦-١١٧١م) لَمَّا وافته المنية باكراً في غاية آب ١٩٩٥. والمقال التالي هو الفصل الأول من رسالته التي لم يُحجّ له إكمالها، رحمه الله.

(١) هو جوهر الصقليّ الروميّ الكاتب مولى المعزّ لدين الله. أنظر: المعريّ، العقبيّ ٨٣-٩٥.

(٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م)، ويدعى عصر الخلفاء؛ ويبدأ الثاني مع دخول بدر الجمالي^(٢) القاهرة عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ليستمر حتى نهاية الدولة الفاطمية على أيدي الأيوبيين عام ٥٦٧هـ/١١٧١م ويدعى عصر الوزراء.

١ - المستنصر بالله: ٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤م

والواقع أنه لم يتح للمستنصر القيام بوظائفه السيامية التي مارسها أسلافه بقدر كبير من الحرية. فقد وصلته الخلافة وهو في سن السابعة. وقام بأعباء الدولة وزير كفاء هو أبو القاسم الجرجرائي^(٣) الذي أفلح، رغم تدخل أم الخليفة المستنصر وحسد الطامعين من رجال البلاط، في تنفيذ سياسة متوازنة حققت الاستقرار الداخلي ووطدت الأمن وشجعت التجارة الخارجية كما وسعت نفوذ مصر وسُمعتها في الخارج.

يبدأ وفاة الجرجرائي في رمضان سنة ٤٣٦هـ/آذار ١٠٤٥م عقبها سلسلة من الأحداث التي ساهمت في إضعاف الدولة الفاطمية، وإغراقها في أزمة مستعصية. ولعله من قبيل المصادفات الطريفة أن يوجد في عصر واحد خليفان يمثل كل منهما المشروع المضاد للآخر، وقد تشابهت ظروفهما إلى حد عجيب، وهما المستنصر الفاطمي الذي امتدت خلافته ستين عامًا (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م)، والقائم العباسي الذي بقي خليفة خمسة وأربعين عامًا (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م). فبالإضافة إلى طول فترة خلافة الرجلين، فإنهما تعرّضا لمحن وأهوال^(٤) جعلت من سلطة الخلافة مقولة نظرية ليس لها معادل على أرض الواقع، ووضعت شخص الخليفة أمام تحديات متت هيبته وكرامته الشخصية. وعدا عن أن

(٢) بدر الجمالي أبو النجم أمير الجيوش (٤٠٥-٤٨٧هـ). المقرئزي، المقفى ٢:

٣٩٤-٤٠٢؛ ابن خلّكان، الوفيات ٢: ٤٤٨-٤٥٠.

(٣) علي بن أحمد الجرجرائي (٤١٨-٤٣٦هـ)، وزير للظاهر والمستنصر. ابن الصيرفي، الإشارة: ٦٨-٧٠.

(٤) أنظر تفاصيل عن معاناة الخليفتين: إبن القلانسي، ذيل، ٨٣-٨٤؛ أبر المحاسن، النجوم الزاهرة ٥: ٩٨ وما بعدها.

كلاهما حقق كسباً على حساب الآخر عبر تمرد داخلي، حيث خطب للمستنصر في العراق سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، وللقائم في مصر سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م، فإن العنصر التركي مثل في ما يخصهما القوة التي قدر لها أن تتحكم في مسار تاريخ دولتيهما، لكن الفارق أن الأتراك في الشرق شكلوا كياناتاً سياسية مستقلة أفادت منه الخلافة العباسية رغم تسلطه وجبروته تجاهها، فقد أمّن لها توسعاً سياسياً ومذهبياً في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي، كما تصدّى لخصومها وفي عدادهم الخلافة الفاطمية، في حين تسبب أترك مصر، الذين حافظوا على طابعهم المتمسك بالتمرد والاتزان والاستعداد لإثارة الشغب والعصيان على كل سلطة، يانبهاك الدولة الفاطمية واستزاف قواها وبالتالي بتحطيمها.

تسلم الوزارة في مصر صدقة بن يوسف الفلاحى^(٥)، بناء على وصية الجرجاني، لكنه سرعان ما خضع لنفوذ مستشار والدبة الخليفة المستنصر، أبي سعد التستري^(٦) الخبير في شؤون التجارة والسياسة. لكن الفلاحى أفلح في التخلص من التستري حين ألّب عليه الأتراك بحجة أنه تسبب بتخفيض مرتباتهم وزيادة مخصصات المغاربة فياجمونه ومرّقه إريباً^(٧).

غير أن مقتل التستري عقد الموقف، وتعرض الفلاحى لحملة عدائية مركزة شاركت فيها أم الخليفة والطامعون بالوزارة، أسفرت عن القبض على الوزير وإيداعه خزانة البنود^(٨) سنة ٤٣٩ ثم مقتله في العام التالي^(٩).

(٥) أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى، سلم الوزارة سنة ٤٣٦ لكنه اعتقل ثم قتل سنة ٤٣٩. ابن الصيرفى، الإشارة: ٧٠-٧٢؛ ابن ميسر، أخبار: ص ٣.

(٦) أبو سعد إبراهيم بن سهل، تولى ديوان أم المستنصر، قتل سنة ٤٣٩هـ. ابن ميسر، أخبار: ص ٣؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٩.

(٧) ابن ميسر، أخبار: ٤٤؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٩.

(٨) كانت إحدى خزائن القصر ثم تحولت إلى سجن. المقرئى، خطط: ٢: ٢٧٨-٢٧٩.

(٩) ابن ميسر، أخبار: ٥؛ وجمعتها ابن الصيرفى سنة ٤٣٩. الإشارة: ٧٢.

وفي العام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م توصل اليازوري^(١٠) إلى الوزارة بعد أن شق طريقه إليها وسط أجواء مشحونة بالتأمر والكيده بين كبار رجال الدولة والحاشية، وبعد أن وُظف موقعه لدى والدة المستنصر، إذ اتخذته مستشاراً لها عوضاً عن الستري. كما تغلب اليازوري على مساعي سلفه الجرجرائي الأصغر^(١١) الهادفة إلى إقصائه والتخلص منه بإسناد منصب القضاء إليه سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، حين جمع ولأول مرة أهم المناصب الرسمية وهي الوزارة والقضاء والدعوة، فضلاً عن رئاسة ديوان أمّ المستنصر الذي كان ينظر إليه كأحد المناصب المهمة لأنّ «كلّ من كان في الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج إليه»^(١٢).

إنّتمت مدّة السنوات الثماني التي قضاها اليازوري في الوزارة ٤٤٢-٤٥٠هـ/ ١٠٥٠-١٠٥٨م بنشاط عسكري وسياسي. ورغم أنّه كان وزير تنفيذ حيث الخليفة هو صاحب السلطة العليا، فقد تمكّن من إقناع المستنصر بانتهاج سياسة خارجية ديناميّة تنطوي على حنكة وذكاء. فهو، كي يواجه تمرّد حاكم إفريقية المعز بن باديس، كلّف أميراً بارزاً هو مكين الدولة بن ملهم بتحقيق مصالحة بين القبيلتين المتناصرتين زغبة ورياح العام ٤٤٣، وحثّهما على غزو إفريقية. وسرعان ما اندفعت القبيلتان واجتاحتا القيروان بعد أن فرّ ابن باديس إلى مدينة المهديّة، لكنّه صمّم على قطع صلاته نهائيّاً بالدعوة والدولة الفاطميّين^(١٣).

وفي العام نفسه تصدّت القوّات الفاطميّة لعصيان قبائل بني قرة والطليحيّين في منطقة البحيرة، وكانوا ألحوا في المطالبة بمقرراتهم السنويّة، وحين امتنع اليازوري عن دفعها لهم، حاصروا والي الإسكندرية

(١٠) الحسين بن عليّ أبو محمّد اليازوري، ت ٤٥٠هـ. المقرئزي، المقفى ٣: ٣٦٦-٤٠٧.

(١١) أبو البركات بن أحمد، وهو ابن أخي الوزير الجرجرائي. ابن الصيرفي، الإشارة: ٧٢-٧٣.

(١٢) المقرئزي، المقفى ٣: ٣٧٣.

(١٣) ابن ميسر، أخبار: ١٢؛ ابن الصيرفي، الإشارة: ٧٧.

الذي استنجد بالعاصمة، فأرسلت له قوّات تمكّنت من البطش بالثائرين وإيقاع الهزيمة بهم، ففرّوا إلى برقة ولم يعد لهم وجود في البحيرة حيث تمّ توطين بني سنس الطائنين مكانهم^(١٤).

أما صقلية فقد أقع اليازوريّ المستنصر بضرورة إخراج الكليّين من الجزيرة، ربّما لقناعته بأنهم لم يعودوا قادرين على ضبط الأمور فيها سيّما وأنّ الزمرتين كانوا يعملون لاستقلال الجزيرة عن الفاطميين^(١٥). وبالفعل تمّ تعيين والٍ جديد هو صمصام الدولة بعد لؤلؤ. وفي الوقت نفسه تمّ توطيد العلاقة مع حكام اليمن الصليحيّين، واستمرّ عليّ بن محمّد الصليحيّ في إرسال النجوى وتقديم الطاعة للقاهرة^(١٦).

وشهدت العلاقات الفاطمية البيزنطية بعض التحسّن في هذه الآونة، فالمعاهدة التي عقدت بإشراف أرملة الظاهر مع الإمبراطور ميخائيل الرابع Michael IV Paphlagoni عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م جدّدت عام ٤٣٩هـ/١٠٤٨م بعد أن أخفق البيزنطيّون في مساعيهم لانتزاع جزيرة صقلية من الفاطميين في أثناء الغزوات التي قادها منياكيس Miniakès في الفترة ٤٣٠-٤٣٢هـ/١٠٣٨-١٠٤٠م. وكبادرة حسن نية بعث الإمبراطور البيزنطيّ عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م رسول العباسيين إلى المعزّ بن باديس حاكم إفريقية أسيراً إلى مصر بعد أن قبضت عليه السلطات البيزنطية وهو يحمل الخلع والتشاريف بمناسبة إقامة الخطبة للعباسيين في إفريقية^(١٧). لكنّ هذا الإجراء لم يمنع ابن باديس من تنفيذ خطوته رسمياً عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م^(١٨). على أنّ البيزنطيّين الذين تعهدوا بتزويد مصر بالقمح، حيث بعث تسنطين الرابع عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م بكميّات من الغلال بالفعل،

(١٤) ابن ميسر، أخبار: ١٢؛ المقرئزي، المققى ٣: ٣٧٨-٣٨١.

(١٥) المقرئزي، المققى ٣: ٣٨٣؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ٥٠.

(١٦) النجوى هي ما يشبه الزكاة يقمها المؤمنون بالدعوة. ابن الطوير، نزهة المقلتين:

١١١.

(١٧) ابن ميسر، أخبار: ١٢؛ المقرئزي، إتماظ ٢: ٢١٤ - ٢٢٤.

(١٨) ابن ميسر، أخبار: ١١-١٢؛ المقرئزي، المققى ٣: ٣٧٨.

عادوا فأوقفوا إرساليات القمح في فترة حكم الأباطورة تيودورا التي وضعت شروطًا سياسية وطلبت أن يتعهد المستنصر بتقديم الدعم العسكري لها إذا ما تعرض حكمها للمخاطر، بيد أن الخليفة الفاطمي رفض هذا الطلب. وقد أفاد السلاجقة من هذه الفرصة وبادروا إلى إرسال وفد إلى القسطنطينية تمكن من توقيع معاهدة لصالح الخلافة العباسية، أقيمت بموجبها الخطبة للقائم العباسي في جامع القسطنطينية^(١٩). ومن المؤكد أن الحكومة المصرية احتفظت لنفسها بشبكة من المخبرين في العاصمة البيزنطية لنقل المعلومات وإرسال التقارير على وجه السرعة عن أوضاع الدولة البيزنطية ونواياها السياسية والعسكرية، رحالما وصلت الأخبار بقرار بيزنطية إيقاف إرساليات القمح إلى مصر، رجَّه المستنصر جيشًا بقيادة مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم «ونودي في بلاد الشام بالغزو إلى بلاد الروم»^(٢٠) وقد حاصر ابن ملهم اللاذقية. وحين وردته قوات إضافية في فرقتين الأولى بقيادة الأمير السعيد ليث الدولة، والأخرى بقيادة الأمير حقاظ بن فاتك موفق الدولة، زحف شمالاً وبلغ إنطاكية، غير أنه اكتفى بإيقاع الأضرار في أعمالها، ثم عاد واستولى على حصن قسطين قرب أفامية، واصطدم مع البيزنطيين في عدة مواقع، فأرسلت الإمبراطورة قوة مزلفة من ثمانين قطعة بحرية اشبكت مع القوات الفاطمية، وتمكنت في إحدى المعارك من أسر ابن ملهم وعدد من الأمراء البارزين^(٢١).

بعث المستنصر القاضي أبا عبدالله القضاعي إلى القسطنطينية عام ٤٤٧هـ/١٠٥٧م للبحث في العلاقات الفاطمية البيزنطية، لكن القضاعي أبلغ الخليفة الفاطمي باستقبال البيزنطيين رسول طغرلبيك السلجوقي والسماح له بإقامة الخطبة للخليفة العباسي في جامع القسطنطينية، مما دفع المستنصر إلى إغلاق كنيسة القيامة في القدس وعدد آخر من كنائس مصر

(١٩) المقرئزي، المخطوط ٢: ١١٢٧ ابن ميسر، أخبار: ١٤.

(٢٠) المقرئزي، المقفى ٣: ٣٨٨ ابن ميسر، أخبار: ١٣.

(٢١) ابن ميسر، أخبار: ١٤ المقرئزي، المخطوط ٢: ١٢٧.

والشامَ وشَدَّد من إجراءات دفع الجزية المفروضة على النصارى^(٢٢).
ولعلَّ من أبرز الأحداث السياسيَّة في منتصف القرن الخامس/
الحادي عشر، الانقلاب الذي قاده البساسيريُّ في بغداد ضدَّ الخليفة
القائم ولصالح المستنصر الفاطميِّ، وقد وضع البساسيريُّ بغداد ومنايرها
في إطار النفوذ الفاطميِّ لمُدَّة عام تقريبًا ٤٥٠-٤٥١هـ/١٠٥٨-١٠٥٩م،
فحقَّق الفاطميُّون بهذه الخطوة نصرًا معنويًّا كبيرًا^(٢٣). بيد أنَّ تفاقم
الأوضاع الداخليَّة في مصر حال دون استثماره فعليًّا في إنجاز الهدف
الفاطميِّ البعيد، وهو الانفراد في قيادة العالم الإسلاميِّ. وساعد تباطؤ
الحكومة الفاطميَّة في تمكين حركة البساسيريِّ ودعمها المباشر إلى
انبهارها أمام هجوم طغرلبيك الذي دخل بغداد ظافرًا وأعاد الخليفة
العبَّاسيَّ إلى عرشه، وما لبث أن قتل البساسيريِّ نفسه^(٢٤).

كان للدور الذي اضطلع به الوزير اليازوريُّ نتائج متناقضة، فبالرغم
من جهوده الحثيثة التي بذلها في إنجاح مهمَّة الداعي مؤيَّد الدين
الشيرازيِّ، وتزويده بالمال والسلاح منذ عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، ممَّا أثمر
في نجاح حركة البساسيريِّ، إلَّا أنَّ تردِّده في تطوير مسارها وحجبه الثقة
عن قائدها فضلًا عن الداعي الفاطميِّ نفسه، ساهما في فشل الحركة،
وكان أن تكبَّدت الخزينة أموالًا طائلة فغدت الدولة في حالة إفلاس،
واعتبر اليازوريُّ مسؤولًا عن هذه الإخفاقات وكان لا بدَّ أن يدفع رأسه
ثمنًا لخطيئة لم تكن في الواقع سوى عدم دقته في حساب النتائج، على أنَّ
التهمة التي وجَّهت لليازوريِّ هي الخيانة العظمى بدعوى أنه أجرى
اتِّصالات بطغرلبيك السلجوقي^(٢٥).

ارتدَّت النتائج السلبية لهذا الإخفاق، بدون إبطاء، على الدولة

(٢٢) ابن ميسر، أخبار: ١٤؛ المقرئزي، إتماظ ٢: ٢٣٠.

(٢٣) حول البساسيريِّ وحركته انظر: ابن الأثير، الكامل ٩: ٤٣٩ - ٤٤٤؛ ابن
القلانسي، فيل: ٨٧-٩٠؛ ابن خلِّكان، وفيات: ١٩١؛ أبو المحاسن، النجوم
٥: ٤-١٢.

(٢٤) أنظر وأي ابن قنري بردي في إخفاق حركة البساسيريِّ، النجوم ٥: ٨-١٢.

(٢٥) ابن ميسر، أخبار: ١٦.

الفاطمية في مصر. فقد شجع السلاجقة على شن حملة واسعة، هدفت في البداية إلى انتزاع الممتلكات الفاطمية في بلاد الشام والحجاز، وما لبثت أن اتجهت إلى مصر مباشرة^(٢٦). صحيح أن الحكم الفاطمي في بلاد الشام لم يكن مستقرًا منذ بداية الانتشار الفاطمي فيها عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م. إذ خرجت حلب عن طاعة الفاطميين مرات عديدة وتطلب استرجاعها جهدًا متواصلًا وصراعًا دائمًا مع القوى ذات النفوذ، سواء البيزنطيون أم التحالفات القبليّة، أو العناصر المتمردة والطامعة في الاستقلال، لكنّها خرجت نهائيًا عن نفوذ الفاطميين عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م^(٢٧). ومع أنّ حكم الفاطميين دمشق لم يتوغل نهائيًا بسبب حركات التمرد والعصيان التي فجرتها القوى المحليّة، وتأييد الخلافة العبّاسيّة والأتراك لهذه الحركات باستمرار، فضلًا عن سوء تدبير الولاة الفاطميين وانقمارهم إلى الخيرة والحنكة، فإنّ المدينة بقيت حتى عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م بأيدي الفاطميين، وحتى استولى عليها المغامر التركي أئمز بن أوق الخوارزمي في هذا التاريخ^(٢٨). بيد أنّ فلسطين والساحل الشاميّ خضعا بالفعل للسلطة الفاطمية رغم تعرضهما بين الفينة والأخرى للغزو الخارجيّ المحدود من قبل الروم البيزنطيين أو الأتراك السلاجقة. وشكّلت اللاذقيّة حدًّا بين البيزنطيين والممتلكات الفاطمية شرق المتوسط^(٢٩).

وهكذا نلاحظ أنّ الفتر التي أتينا على أحداثها شكّلت ذروة التوسّع الفاطميّ الخارجيّ، إذ كان يُخطب للخليفة المستنصر، مع بعض التفاوت الزمنيّ، في شمال إفريقية وصقلية وبلاد الشام والعراق والحجاز واليمن وعمان، بل وتُشير بعض الأدلّة إلى وصول هذا المدّ حتى الأندلس. هذا فضلًا عن إقامة الخطبة للمستنصر في القسطنطينيّة كتعبير عن التوسّع

(٢٦) ابن القلانسي، ذيل: ١٠٨-١١١؛ المقرئزي، المقفى ٢: ٣٩٩.

(٢٧) ابن القلانسي، ذيل: ٩٨-٩٩؛ ابن الأثير، الكامل ١٠: ٦٣ - ٦٤.

(٢٨) حول أوضاع دمشق في أثناء هذه الفترة انظر: ابن القلانسي، ذيل: ١٠٧-١٠٨.

(٢٩) المقرئزي، المقفى ٣: ٣٨٨؛ أبو المعاسن، النجوم ٥: ١٢٨.

والنفوذ الفاطميين. وفي الفترة نفسها بدأت تبرز انحطاطة تراجعية متواصلة أثرت في الأوضاع الداخلية وتأثرت بها، وأسفرت في النهاية عن تقلص امتداد النفوذ الفاطمي الخارجي في حدود الساحل السوري واليمن. مع مطلع النصف الثاني من القرن الخامس/الحادي عشر، أخذت الأوضاع الداخلية في مصر بالتفاقم، فقد تفجرت فيها أزمة شاملة على خلفية تدهور الأوضاع الاقتصادية. وكان المظهر السياسي للأزمة عنيقاً ومنتزحاً بالمخاطر. فمن الناحية الإدارية شهدت مصر خلال اثني عشرة سنة ٤٥٤-٤٦٦هـ/١٠٦٢-١٠٧٣م ظاهرة نادرة في تاريخ الدول، فقد تعاقب على كرسي الوزارة أكثر من خمسين وزيراً، حتى إن بعض الوزراء لم تتعدَّ ولايته شهراً أو حتى أياماً^(٣٠). ويلاحظ المقرئ أن سبب هذا التخبط يعود إلى كثرة الروايات في البلاط، وتدخل كبار رجال الدولة، ووقوع الخليفة تحت تأثير حاشيته.

٢ - تمرد الأتراك

غير أن أخطر التحديات التي واجهها الخليفة كانت في تمرد القادة العسكريين، وخاصة الأتراك. ومع أن ناصر الدولة بن حمدان هو الذي تزعم التمرد، فإن وجوده في المقدمة لم يكن سوى تعبير عن توافق في المصالح. فابن حمدان الذي عرف بميله إلى المغامرة وطموحه في امتلاك السلطة، رأى في الأتراك قوة يمكن الاعتماد عليها في تحقيق أهدافه، وشعر الأتراك من جانبهم بحاجتهم إلى شخصية بارزة تزجدهم جهودهم وقادرة على الوقوف في وجه الخليفة والسودان والمغاربة^(٣١). وسوف نلاحظ أنه بمجرد ما افتقد المتحالفون هذا المبرر أداروا لبعضهم بعضاً ظهر المجن، وشرعوا في تصفية حساباتهم. وحين أحس الأتراك بزيادة نفوذ ابن حمدان وسطوته الشخصية، بادروا إلى التخلص منه واجتثاث جذور أسرته في مصر^(٣٢).

(٣٠) ابن الصيرفي، الإشارة: ٦٩-٩٩؛ ابن ميسر، أخبار: ٢٢-٣٠، ٥٥-٥٦.

(٣١) ابن ميسر، أخبار: ٣٢؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥، ١٣.

(٣٢) ابن ميسر، أخبار: ٣٩؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥، ٨٨-٨٩.

لقد اشتعلت المعارك بين الأتراك والسودان على خلفيّة ازدواجيّة السلطة وتنافس القوّتين بعد تقلّص دور المغاربة ونفوذهم، خاصّة في العاصمة. وتزايد عدد السودان الذي بلغ أكثر من خمسين ألفاً وفق بعض المصادر^(٣٣). والأهمّ من كلّ ذلك الأزمة الاقتصاديّة الخانقة التي لاحت في الأفق منذ عام ١٠٥٤هـ/١٠٥٤ حيث عرفت مصر موجة غلاء تراكمت مع انتشار الأمراض والأوبئة. على أنّ أولى الاشتباكات الدمويّة بين الطرفين وقعت عام ١٠٦٢هـ/١٠٦٢م في معركة كوم شريك^(٣٤) التي أسفرت عن هزيمة السودان. لكنّ أمّ المستنصر بادرت إلى دعمهم بكلّ الوسائل الماديّة والمعنويّة، وتجددت المعارك في العاصمة وكان أعنفها تلك التي وقعت عام ١٠٦٦هـ/١٠٦٦م واستمرّت عدّة أيّام، لكنّ الأتراك تمكّنوا بقيادة ابن حمدان من دحر السودان وإجبارهم على الفرار، وطاردوهم حتّى الإسكندرية. وفي عام ١٠٦٧هـ/١٠٦٧م تردّدت الأنباء بوجود تجمّعات للعيد في الصعيد، فاتّجه ابن حمدان لقتالهم ونجح في تشتيت شملهم، كما تبع الأتراك السودان في الإسكندرية وكسروا شوكتهم. وبذلك أصبح الأتراك القوّة المسيطرة بالفعل على البلاد وقد كشفوا عن نواياهم بأن بدأوا في الإلحاح لزيادة مخصّصاتهم الماليّة^(٣٥).

والواقع أنّ الصراع بين الأتراك والعيد لم يؤدّ إلى خلق الفوضى واضمحلال سلطة الدولة، وفقدان الأمن والاستقرار وحسب، بل تطوّر إلى مواجهة بين الأتراك والخليفة نفسه حالما أحسّ هؤلاء بتنامي قوّتهم، وطمعوا في امتلاك ثروة البلاد. فناصر الدولة طالب المستنصر بزيادة مرتبات الأتراك لتبلغ حوالي نصف مليون دينار، بينما لم تتجاوز فيما مضى الثلاثين ألفاً، مع علمهم، أي الأتراك، أنّ خزينّة الدولة تعاني الإفلاس بسبب سوء الأوضاع الاقتصاديّة^(٣٦). وكان من الطبيعيّ عندئذ

(٣٣) ابن ميسر، أخبار: ٣١.

(٣٤) ابن ميسر، أخبار: ٢٥، وكوم شريك إحدى قرى محافظة البحيرة.

(٣٥) ابن ميسر، أخبار: ٣٢؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ٧٤، ٨١.

(٣٦) ابن ميسر، أخبار: ٣٢؛ المقرئ، خطط ٢: ١٢٨.

أن يبادر القادة الأتراك وزعيمهم ابن حمدان بالهجوم على القصر الخليفة، وكتفياً أكبر عملية نهب منظمة وسافرة على امتداد ثلاث سنوات ٤٥٩-٤٦٢هـ/١٠٦٦-١٠٦٩م. فقد اقتحمت جموعهم قاعات القصر واستخرجت محتويات الخزائن من تحف ثمينة وأسلحة موثاة بالذهب والفضة، وثياب بالغة الإتقان، وأثاث فاخر^(٣٧). ولم يكتفوا بنش «التربة المعزّية»^(٣٨) واستخراج محتوياتها من المعادن الثمينة، بل لجأوا إلى نهب المكتبة^(٣٩)، وتوزّع المهاجمون نفائس الكتب فيما بينهم، وجرى تقويم كلّ هذه الثروة بمبالغ متدنية لا تفي بما هو مطلوب. وتبالغ المصادر التاريخية في وصف حال الخليفة المستنصر بعد هذه الأحداث فتصوّره على نحو يستحقّ العطف والثناء: «فوجدوه وقد ذهب سائر ما كان يعهده من أيّبة الخلافة حتّى جلس على حصيره»^(٤٠).

على أنّ ناصر الدولة أقدم على خطوة أكثر خطورة، فهو، إضافة إلى المعاملة الفظة والمهينة التي خصّ بها الخليفة غداة سيطر على القاهرة عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، فقد راسل السلطان السلجوقيّ آلب أرسلان سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عارضاً عليه تسليمه مصر، ثمّ أقام الخطبة للقائم العباسي في الإسكندرية ومدن الوجه البحريّ بنية القضاء النهائي على الدولة الفاطمية^(٤١).

بعد تخلّص الأتراك من ابن حمدان، تابعوا سياسة الابتزاز والتضييق على العاصمة وقد برز بينهم قائدان هما ألدكز وبلدكوش. ونجم عن تلك السياسة فقدان الأمن وانتشار اللصوصية وقطع الطرق. وغدت أجهزة الدولة مشلولة، فالوزراء ورؤساء الدواوين والموظفون أصبحوا غير قادرين على القيام بوظائفهم^(٤٢). وكان الخليفة قد غلب على أمره بعد أن

(٣٧) ابن ميسر، أخبار: ٣٦-٣٧.

(٣٨) التربة المعزّية: هي المقبرة التي دُفن فيها المعزّ وأسلانه من الخلفاء الفاطميين.

(٣٩) المقرئزي، خطط: ٢: ٢٥٣؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٣.

(٤٠) ابن ميسر، أخبار: ٣٨؛ أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٤-١٥.

(٤١) ابن ميسر، أخبار: ٣٥، ٣٩؛ المقرئزي، المقفى: ٢: ٢٢٠.

(٤٢) ابن ميسر، أخبار: ٣٦-٣٧؛ المقرئزي، أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٦-١٧.

تحظمت قوّة السودان كأحد طرفي التوازن. ويعلّق المقريري على تفاقم الوضع بقوله: «ولم تعترضهم الدولة ولا التفتت إلى قدر ذلك ولا احتفلت به: وجعلته هو وغيره فداءً لأموال المسلمين وحفظًا لما في منازلهم»^(٤٣). ومع حلول عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م كانت اللوحة السياسيّة في مصر غاية في اليأس، فالقوضى في كلّ مكان، وأعمال النهب والسلب وتقطع الطرق غدت مألوفة، والحقول شبه مهجورة، وكذلك العاصمة التي هرب معظم سكّانها وخاصّة الفسطاط والقطنع^(٤٤).

وإذ تحكّم الأتراك في العاصمة، وعزلوا الخليفة في قصره، كانت الولايات مسرحًا لأعمال التمرد والفساد وتحكّم العصاة، بينما كانت الممتلكات الفاطميّة في بلاد الشام متروكة لأهواء القادة والأمراء وتنازعهم، حيث استولى كلّ منهم على مدينة أو منطقة وعيّن نفسه حاكمًا عليها بدون أن ينتظر موافقة الحكومة أو يطلب تكليفًا رسميًا. وكان بدر الجماليّ أحد هؤلاء الظالمين، فقد هرب من دمشق إبان ولايته الثانية لها سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، وتمكّن من السيطرة على عكا^(٤٥). وبعد أن تحصّن بها شرع في تعزيز قوّته وتوسيع نفوذه، ممّا شجّع الخليفة المستنصر على الاستنجاد به^(٤٦). وقد أدرك المستنصر أنّه لا مفرّ من أن يختار بين حالة الفوضى المترديّة، وبين فرض النظام، ولو كان في ذلك فقدان سلطاته ودوره كحاكم فعليّ للبلاد. ولا شكّ في أنّ الجماليّ كان على علم بما يجري في مصر، وكان يراقب الأوضاع عن كثب ويطمح في دخولها قويًّا، فتهيّأت له الفرصة التي طالما انتظرها.

لقد مثّلت هذه الخطوة مفترقًا هامًّا في تاريخ مصر، فهي من جهة أمنت حالة من الاستقرار والأمن وسيادة النظام أنقذت الدولة من الانهيار، وأطالت في عمرها قرنًا آخر. كما أعادت لها هيبتها في الداخل

(٤٣) المقريري: خطط ٢: ٢٣٥؛ ابن الفلانسّي، ذيل: ٨٣-٨٤.

(٤٤) المقريري، خطط ١: ٨؛ ابن الصيرفي، الإشارة: ٩٤-٩٥.

(٤٥) ابن الصيرفي، الإشارة: ٩٥؛ ابن الفلانسّي، ذيل: ٩٣.

(٤٦) أبو المحاسن، النجوم ٥: ٢١-٢٣، المقريري، المقفى ٢: ٣٩٥.

والخارج. لكنّها بالمقابل قلبت البنية السياسيّة، ففي حين كان الخليفة يجمع السلطات في يده، ويُعتبر السيّد الأعلى والحاكم المطلق، أصبح مجرد رمز يمنح الشرعية للسلطة القائمة التي تركّزت في أيدي الوزير والقائد العسكريّ بدر الجماليّ. ومنذ هذا التحوّل دخلت مصر الفاطميّة في طور جديد هو عصر وزراء السيف، أو السلاطين، اتّسم فيه الحكم بطابعه العسكريّ، وغداً مشابهاً إلى حدّ بعيد لما كان سائداً في الدولة العبّاسيّة حيث وُجد السلاطين الأتراك إلى جانب الخليفة العبّاسيّ.

٣ - بدر الجماليّ

لم يشأ الجماليّ الأرمنيّ الأصل، والذي كان مملوكاً مغموراً ترقّى في المهامّ والمناصب حتّى أهلته مزاياه العسكريّة من سطوة وقسوة وذكاء لبسّلم ولاية دمشق مرتين ٤٥٥ و٤٥٨هـ/ ١٠٦٣ و١٠٦٥م، أن يدخل مناصرة السلطنة في القاهرة بدون رويّة، وقد أدرك أنّ مشروعه يتطلّب خطوات تمهيدية لا غنى عنها، وحالما اطمأنّ إلى حاجة العاصمة إليه أخذ في وضع الشروط وكان أبرزها شرطان:

١ - حلّ الجيش المصريّ نهائياً وبدون إبطاء.

٢ - السماح له باصطحاب قوّاته الخاصّة إلى العاصمة^(٤٧).

ولمّا كان المستنصر في وضع لا يمكنه معه المماثلة والانتظار، فقد قبل الشروط. فأبحر الجماليّ مع رجاله إلى الساحل المصريّ وسط تحذيرات ذوي الخبرة من مخاطر الملاحة في فصل الشتاء^(٤٨). ويبدو أنّ الجماليّ لم يكن في حالة مادّيّة جيّدة بدليل أنّه اقترض الأموال من تجّار الإسكندريّة، وقبل استضافة المغاربة من لواتة وزعيمها سليمان اللواتيّ^(٤٩). وفي تلك الأثناء وضع شرطاً جديداً لدخوله القاهرة، وهو

(٤٧) المقرئيّ، خطط، ٢: ٢٠٩؛ المقفّى ٢: ٣٩٥.

(٤٨) السجلات المستصريّة ٥٦: ١٨٤؛ المقرئيّ، المقفّى ٢: ٣٩٦.

(٤٩) المقرئيّ، خطط ٢: ٢٠٩.

أن يبادر الخليفة إلى القبض على الزعيم التركي بلدكوش^(٥٠). وبالفعل، تم اعتقال هذا المتمرّد ودخل الجماليّ القاهرة بصفته متقدّمًا للبلاد، واستقبله الخليفة في القصر يوم الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى ٤٦٦هـ/ كانون الثاني ١٠٧٤م^(٥١).

لم تتخذ إجراءات دخول الجماليّ القاهرة مظاهر غير مألوفة، حتى إنّ الأمراء والأعيان والقادة فيها بادروا إلى الاحتفاء به، فوجهوا إليه الدعوات، وأقاموا له الولائم. ولا شك أنّ هذا الترحيب عكس رغبة كلّ منهم في كسب الجماليّ إلى جانبه كرجل قويّ، في حين كان هذا الرجل يستعدّ للخطوة الأولى في طريق امتلاكه السلطة في مصر، تلك الخطوة التي لم يطل حلولها. فقد ردّ الجماليّ جميل مضيفه، وجمعهم في وليمة عامرة دفع كلّ منهم ثمنها حياته قبل أن ينبجج فجر اليوم التالي^(٥٢). وهكذا افتتح الجماليّ سابقة للقضاء على المعارضة مستكرّر في مصر وسيختتمها محمّد علي باشا في وليمة القلعة التي أعدّها للمماليك عام ١٨١١م.

حالما تخلّص الجماليّ من أبرز الزعماء في القاهرة، وتقبّل خلع الوزارة من المستنصر سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م^(٥٣)، باشر مهامه بكثير من الحماسة والسرعة، وكان هدفه العاجل فرض الأمن والهدوء، وإعادة سيطرة الدولة على البلاد، والقضاء على مظاهر التمرد والشغب والنوضى، سيّما وأنّ الخليفة أطلق يده فعلاً بموجب نصّ السجلّ الرسميّ الذي قرئ أمام رجال الدولة. ولا تترك مفردات السجلّ أيّ التباس، بأنّ الخليفة تخلى عن سلطاته وصلاحيّاته للجماليّ، فقد جاء فيه: «وقد قلّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كلّ ما وراء سريره»^(٥٤). وفي مكان آخر: «وجعله سناد دولته، وألقى إليه

(٥٠) ابن الصيرفيّ، الإشارة: ٩٥-٩٦.

(٥١) المقرئزيّ، خطط ٢: ٢٠٩ وفيها يجمل وصوله في سنة ٤٦٥.

(٥٢) المقرئزيّ، المقفى ٢: ٣٩٦-٣٩٧. وحول المنبحة التي أعدّها الوزير ضرغام

للأمراء البريّة سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م انظر المقرئزيّ، خطط ٢: ٣٠٤.

(٥٣) المقرئزيّ، الخطط: ٣٠٥؛ السجلات المستصرية: سجل ٥٦.

(٥٤) المقرئزيّ، الخطط: ٣٠٥؛ ابن الصيرفيّ، الإشارة: ٩٦.

مقاليد الأمور وسياسة الجمهور^(٥٥).

كانت القوة التي أحضرها بدر الجمالي مكوّنة في معظمها من الأرمن، ومن الطبيعي أن تتخذ الحكومة الجديدة في مصر طابعاً متأثراً بهؤلاء الأرمن الوافدين، حتى إن المقرزي وصف السلطة الجديدة بأنها دولة أرمن^(٥٦). والحال أن الجمالي تخلّص من تركيبة الجيش المصري القديمة نتيجة إدراكه أنها لم تعد صالحة للقيام بواجباتها كمؤسسة عسكرية للدفاع والأمن، بل على العكس شكّلت مصدراً للاضطراب والدمار للبلاد وسكانها^(٥٧).

بعد أن حقّق الجمالي الاستقرار في العاصمة، تطلّع إلى نشر الأمن والنظام في الأقاليم المصرية التي تقاسمتها قوى مختلفة، فكانت البحيرة تحت سيطرة قبائل لواته، وسيطر على الإسكندرية طائفة يعتقد أنها من البربر وتدعى الملحية^(٥٨). وفي الصعيد ما زال السودان ذوي نفوذ، إلى جانب بعض القبائل العربية التي استقرت هناك. في حين كان الأتراك قد أخضعوا القاهرة والفسطاط لسيطرتهم^(٥٩).

بدأ الجمالي بالوجه البحري حيث وجّه سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م ضربة مفاجئة إلى اللواتيين وبدّد شليم بعد أن قتل زعيمهم سليمان اللواتي. وانتقل إلى الإسكندرية حيث سحق تمرد الملحيين^(٦٠). وبعد أن أخضع القسم الشمالي من مصر تحوّل إلى الصعيد سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م وهزم تحالفاً قبلياً ضمّ جبهة والجمافرة والشعالة بمدينة طوخ، وقضى على حاكم أسوان الملقّب بكنز الدولة، كما أوقع بالسودان ولاحق فلولهم^(٦١). وما لبث أن هزم تحالفاً قبلياً آخر من قيس وقزارة وسليم

(٥٥) السجلات المتصرية: الجبل ٥٦ : ١٨٥.

(٥٦) المقرزي، المقفى ٢ : ٤٠٢.

(٥٧) المقرزي، الخطط، ١ : ٨ ؛ ابن ميسر، أخبار: ٣٦.

(٥٨) حول الملحية انظر المقرزي، الخطط ٢ : ٤٤٨.

(٥٩) ابن الصيرفي، الإشارة: ٩٤-٩٧؛ المقرزي، المقفى ٢ : ٣٩٧.

(٦٠) السجلات المتصرية: مجلّ ٥٦، ٥٧، ٥٨، ابن ميسر، أخبار: ٤١.

(٦١) السجلات المتصرية، الجبل ٥٧ : ١٨٧-١٨٨؛ ابن ميسر، أخبار: ٤٣.

وطاردهم حتى برقة^(٦٢). وهكذا أصبحت البلاد بأكملها خاضعة للسلطة المركزية، وقد خلت من الثائرين والتمرديين وعادت الدولة لتفرض هيبتها في كل الولايات والعاصمة. ويُلخّص ابن تغري بردي الموقف بقوله: «وصلح الحال لهلاك الأضداد»^(٦٣).

والتفت الجماليّ إلى استعادة نفوذ مصر في المناطق التي كانت خاضعة للدولة الفاطمية. فقد أعاد الخطبة للمستنصر في مكة عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م وكذلك في المدينة^(٦٤)، ولم تقطع الخطبة فيهما حتى عام ٤٧٣هـ/١٠٨١م بسبب امتداد نفوذ السلاجقة إلى الحجاز.

وفي هذه الأثناء تمكّن أحد المغامرين الأتراك، وهو أتسز بن أوق الخوارزمي^(٦٥) وعند من إخوته، بالاعتماد على قوة تركية كان ملكشاه السلجوقي أبقاها في بلاد الشام كجزء من خطته لغزو مصر، من الاستيلاء على فلسطين عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م. وفتحوا القدس والرملة وطبرية، وتمكّن أخوه شكلي من الاستيلاء على عكا وقتل واليها المصري^(٦٦). على أنّ أتسز الذي حاصر دمشق مرّات عديدة في عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م بدون فائدة أفلح في الاستيلاء على المدينة بالأمان في ذي القعدة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م. وقطع الخطبة للمستنصر وخطب للمقتدي العباسي^(٦٧). وبذلك تكون دمشق قد خرجت نهائياً عن النفوذ الفاطمي. وبلغت الجراة بأتسز هذا أن شنّ حملة على مصر بتشجيع من ابن بلدكوش الهارب من مصر بعد دخول الجماليّ إليها. وقد احتلّ أتسز معظم الريف شمال العاصمة المصرية عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م^(٦٨). وهدف بذلك التضييق على القاهرة والفسطاظ. غير أنّ بدرًا أسرع بالعودة من الصعيد حيث كان يطارد

(٦٢) السجلات، السجل ٥٧: ١٨٧.

(٦٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٥: ٢٣.

(٦٤) إبن ميسر، أخبار: ٤٢؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ٩٧، ١٠٤.

(٦٥) حول أتسز وأعماله في بلاد الشام انظر: المقرئ، المقفى ٢: ٢٢٠-٢٢٣.

(٦٦) المصدر نفسه: ٢٢٢؛ ابن ميسر، أخبار: ٤١.

(٦٧) إبن القلانسي، ذيل: ١٠٨؛ ابن ميسر، أخبار: ٤٢.

(٦٨) إبن ميسر، أخبار: ٤٣-٤٤؛ المقرئ، المقفى ٢: ٢٢٣.

السودان. وبعد أن اطمأنّ لسلامة الدفاعات في العاصمة، اشتبك مع الأتراك معتمدًا على تحالف ضمّ العرب والسودان، وتمكّن من إيقاع الهزيمة بأتمز ولاحقه العرب وقضوا على معظم قوّاته. فعاد هاربًا إلى فلسطين حيث عاث فسادًا، ومنها وصل إلى دمشق التي كانت تعاني محنة قاسية، فتناقص عدد سكّانها إمّا بسبب الحروب أو الأوبئة أو الهرب. يقول سبط ابن الجوزي: «ولم يبقَ من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفتاهم الفقر والغلاء والجلاء...»^(٦٩).

حاول الجماليّ استعادة دمشق، فرجّه جيشًا سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م بقيادة نصر الدولة الجيوشيّ حاصر المدينة لكنّه اضطرّ إلى فكّ الحصار، وعاد إليها ثانية في العام التالي^(٧٠). ورغم أنّه نجح في السيطرة على فلسطين وأعمال دمشق، فإنّه أخفق في حصاره المدينة، إذ طلب أتسز العون من كئش السلجوقيّ الذي لئى الاستغاثة وحرّم القوّات المصريّة من قرصة الاستيلاء على المدينة، لكنّ أتسز الذي تخلّص من الفاطميّين فقدّ رأسه على يد منقذه بعد فترة وجيزة^(٧١).

ويمكن القول إنّ الجماليّ تمكّن إبان المدة التي قبض فيها على السلطة في مصر ٤٦٦-٤٨٧هـ/١٠٧٣-١٠٩٤م، من تقديم البرهان على أنّه ليس مجرد مغامر، إذ أعاد الاستقرار في البلاد. وهو رغم ما سفكه من دماء وأزهق من أرواح، فإنّه أوقف حالة الانهيار، وأمسك بقوّة بزمam الأمور، ففرض الأمن وقمع أعمال الشغب والسطور والتمرد، وانتزع الأقاليم من القوى التي سيطرت عليها، وأخضعها للسلطة المركزيّة، وسحق مراكز القوى داخل العاصمة وعلى امتداد مصر، وهكذا عادت الدولة ومؤسّساتها^(٧٢). إضافة إلى أنّه حقّق بعض النجاح في استعادة

(٦٩) ابن القلانسيّ، نيل: ١٠٨-١١١.

(٧٠) ابن ميسر، أخبار: ٤٤-٤٥؛ المقرئبيّ، المقفى ٢: ٣٩٩.

(٧١) ابن ميسر، أخبار: ٤٦؛ ابن القلانسيّ، نيل: ١١٢.

(٧٢) الجلات المستصريّة: ١٥، ١٦، ٣١، ٣٢؛ ابن ميسر، أخبار: ٥٢-٥٣.

الممتلكات المصرية في بلاد الشام حين انتزع من أيدي الأتراك في العام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م المدن الساحلية صور وصيدا وجبيل وعكا^(٧٣).

ويذكر أن الجمالي اهتم بالإدارة، وأجرى إصلاحات إدارية، فأعاد تنظيم الدواوين وعيّن ولاية جدداً للولايات الكبرى قوص والشرقية والغربية والإسكندرية إضافة إلى القاهرة والفسطاط^(٧٤). ومنح هذا التنظيم الجديد الولاية صلاحيات أوسع فغدا والي قوص أعلى مرتبة من بقية الولاية الأربعة يليه والي الشرقية^(٧٥).

هذا وقد أضيف إلى صلاحيات الجمالي بدءاً من العام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م القضاء والدعوة وهما وظيفتان على درجة كبيرة من الأهمية. وبدأت السجلات التي أصدرها المستنصر منذ هذا التاريخ تحمل ألقاب الجمالي الجديدة: «كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين»^(٧٦)، مما يُشير إلى تزايد نفوذه وإحكام قبضته على البلاد.

والواقع أن ما قام به بدر الجمالي كان في جوهره انقلاباً سياسياً بكلّ معنى الكلمة، إذ فرض نظاماً عسكرياً يرأسه قائد عسكري معتد بنفسه، وبعيد الطموح، جمع في يده السلطات السياسية والعسكرية والقضائية والدينية^(٧٧).

بيد أن الخليفة الفاطمي، رغم افتقاده القدرة على ممارسة الحكم، كما فعل أسلافه، فقد بقي مصدرًا ومرجعاً أعلى، لا سيما في المسائل الدينية والدعوية. ودلينا في ذلك إشرافه على الدعاة، وتوجيه المراسلات التي تبادلها مع حكام اليمن الصليحيين الذين كانوا يتلقون التعليمات مباشرة من المستنصر، لا في ما يخص اليمن وحسب، بل وكذلك حول نشاط الدعاة في عمان والهند^(٧٨). وتُشير السجلات التي

(٧٣) ابن مبره، أخبار: ٤٩-٥٠؛ أبو الحاسن، النجوم: ٥: ١٢٨.

(٧٤) النلقشتي، صبح الأحيى: ٣: ٣٩٣-٣٩٤.

(٧٥) النلقشتي، صبح الأحيى: ٣: ٣٩٣-٣٩٤.

(٧٦) السجلات المصرية، سجل ٣٤ المؤرخ في العام ٤٧٠هـ، ص ١٠٧.

(٧٧) ابن الفلانسّي، قيل: ٨٣-٨٤؛ ابن الصيرفي، الإشارة: ٩٥-٩٦.

(٧٨) السجلات المصرية، ٥٠: ١٦٨-١٦٩؛ ٦٣: ٢٠٥.

أصدرها المستنصر في المدة ٤٦٦-٤٨١هـ/١٠٧٣-١٠٨٨م إلى احتفاظه بهذا الدور، وإلى أن الجمالي محض الخليفة الاحترام والتوقير، عدا عن ولائه وحماسه للدعوة الفاطمية^(٧٩).

كان الجمالي قد مهّد لخلائته في السلطة قبل وفاته، فقد أشرك ولده المحبب إليه شاهنشاه في أمور الحكم، وجعله ولياً لعهده منذ العام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ولقبه بالأفضل. وقد أصدر الخليفة سجلاً يجعل فيه الخطبة ثلاثية، أي يذكر فيها الخليفة يليه أمير الجيوش ثم ولده الأفضل^(٨٠). كما ورد اسمه إلى جانب اسم والده على عدد من الأوابد الأثرية.

٤ - وزارة الأفضل شاهنشاه ووفاة المستنصر

ما إن توفي الجمالي في جمادى الأولى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م حتى ظهرت التناقضات السياسية من جديد. فالعصر التركي، وإن تقلص نفوذه وقوته العسكرية في هذه الآونة، فإنه ما زال يسعى لاستعادة مواقعه، ولكن من خلال قصر الخلافة هذه المرة. ويبدو أن المستنصر أراد التخلص من تحكّم الأرمن بالدولة، وكان أميران تركيَّان يتنازعان للفوز بمنصب الوزارة رحماً نصر الدولة أتكين، وأمير الدولة لاوون. فاختر المستنصر هذا الأخير وقلّده المنصب رسمياً، غير أن العسكر رفضوا التبول بهذا الاختيار وهدّدوا الخليفة باستعمال السلاح فاضطرّ لاستدعاء الأفضل وتكليفه بالوزارة^(٨١). كان لفرض العسكر الأفضل وزيراً دلالات سياسية واضحة، وهي أن القوى الاجتماعية التي تكوّنت في غضون حكم الجمالي أصبحت ذات مصالح متعدّدة، وهي مستعدة للدفاع عنها والإبقاء على البنية السياسية التي تؤمّن لها هذه المصالح.

جاءت وفاة المستنصر في ذي الحجة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، أي بعد

(٧٩) أبو المحاسن، النجوم: ٥: ١٢٠؛ القرظي، الخطط: ٣: ٣٥.

(٨٠) الجلات المستنصرية، ١٥: ص ٦٥.

(٨١) ابن مبر، أخبار: ٥٣-٥٤؛ ابن الصيرفي، الإشارة: ٩٧.

وفاة الجمالي بسبعة أشهر^(٨٢)، مما سمح للأفضل بانتهاج سياسة فردية واضحة. فقد غدا مطلق اليد في مصر، وياشر بناء الدولة بما يؤمن استمراره في الحكم بدون منازع. وكانت الخطوة الأولى والهامة التي نَفَّذها تتعلق بالخلافة، فللمرة الأولى في تاريخ الخلافة الفاطمية يسمي الخليفة بطريق التعيين من قبل الوزير، إذ اختار الأفضل الابن الأصغر للمستنصر وهو أبو القاسم أحمد المولود العام ٤٦٧هـ/١٠٧١م ولقبه بالمستعلي بالله^(٨٣)، مبعداً بذلك أخاه الأكبر نزار، المولود العام ٤٣٧هـ/١٠٤٥م، عن هذا المنصب. وتنجم خطورة الإجراء المذكور باعتباره خرقاً لأحد أسس العقيدة الفاطمية، والقاضي بانتقال الإمامة إلى الابن الأكبر للإمام، الذي هو الخليفة نفسه^(٨٤). وقد تمخض ذلك عن أول انشقاق معلن في الدعوة الفاطمية بين النزارية، القائلين بإمامة نزار، والمستعليه أنصار الخليفة الذي ساندته الأفضل في مصر^(٨٥). وتسبب الانقسام بأضرار فادحة بالدولة والدعوة الفاطميين، بل يمكن القول إنه قضى على أية فرصة لاستئناف الدولة الفاطمية مشروعها الإستراتيجي، وجعلها تخسر معظم رصيدها العقائدي والسياسي، وتصبح عرضة للتمزق والانحيار^(٨٦). ذلك أن أنصار الدعوة الموجريين في العراق وفارس ومعظم بلاد الشام أعلنوا انفصالهم عن مركز الدعوة في مصر، بل وتعهدوا بالقصاص من المخالفين وصية الإمام ومناصرة نزار وحقه في الخلافة^(٨٧). وبالفعل فقد شنّ النزاريون حملة دعارية وسياسية وعسكرية منظمّة، كانت ساحتها مصر ذاتها، أفلحت في نشر الخوف والقلق لدى

(٨٢) ابن ميسر، أخبار: ٥٥؛ المقرئزي، خطط ٢: ١٦٣-١٦٤.

(٨٣) ابن ميسر، أخبار: ٥٩-٦٠.

(٨٤) حول الإمامة عند الفاطميين انظر: د. عبد المنعم ماجد، نُظُم الفاطميين ورسومهم، ١: ٥٥-٦٥.

(٨٥) السجلات المتصرية، ٣٥: ١٠٩-١١٨؛ المقرئزي، الخطط ٢: ١٦٥.

(٨٦) ابن القلانسي، قبيل: ١٢٨؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ١٤٢-١٤٣.

(٨٧) قاد الحركة المؤيدة لإمامة نزار الحسن بن الصباح الذي أقام مراكز نشطة للدعوة في فارس وبلاد الشام. عن هذه الشخصية ودورها انظر: ابن ميسر، أخبار: ٤٧-٤٩؛

القلقشندي، صبح الأمل ١٣: ٢٣٦؛ المقرئزي، إتعاظ ٢: ٣٣٣-٣٣٤.

أجهزة السلطة وخاصة الوزير الأفضل والخليفة^(٨٨).

وغالب الظن أن إيصال المستعلي إلى الخلافة كان عملاً مدبراً من قبل، ومتفقاً عليه بين الأفضل وأبيه بدر، ذلك أنه سبق وزوج المستعلي من ابنة بدر الجمالي في حياة المستنصر، ومعروف أن هذا النوع من المصاهرات له أهداف سياسية واضحة. وإذا ضربنا صفحاً عن إشارة ابن ميسر لما يكنه الأفضل من كراهية لئزار بسبب الإهانة التي وجهها إليه حين أعاب عليه كونه أرمينياً^(٨٩)، فإن شخصية المستعلي كانت من النوع الذي يستجيب لمقتضيات حكم الأفضل. فالمستعلي لم يظهر طيلة فترة خلافته أي ميل للتدخل في السلطة، بل على العكس، أظهر مطاوعة تامة لوزيره الذي فرض عليه نوعاً من الإقامة الجبرية^(٩٠).

تركزت اهتمامات الأفضل على توطيد حكمه في الداخل وحمايته من المعارضين، والتنعم بحياة شخصية مرفهة مستنداً في ذلك إلى الثروة الطائلة التي جمعها^(٩١)، وأحاط نفسه بحاشية ضخمة، وحرص على مظاهر الأبهة والفخامة، فبنى القصور وأماكن التزهة، في الوقت الذي حرم فيه الخليفة من ممارسة المراسم الخلافة المعروفة، كمواسم الركوب، والأعياد، والخطبة والأسمطة (المآذب). وقلص اهتمام الدولة بالدعوة الفاطمية إلى أدنى الحدود. فبالمقارنة إلى عدد السجلات التي صدرت عن الخلافة إلى حكام اليمن، نجد أن ثمة أربعة وستين سجلاً منها تعود إلى فترة المستنصر، بينما لم يصدر في خلافة المستعلي سوى سجلين مؤرخين في صفر من عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م، أحدهما بعث به أمّ المستعلي إلى الملكة الحرّة في اليمن، تبيّن به شرعية إمامة ولدها، وأنّ المستنصر أباه نصّ عليه قبل وفاته، وتذكر تفاصيل خروج نزار بن المستنصر واعتصامه بالإسكندرية مع أفتكين غلام بدر الجمالي، ودور

(٨٨) ابن ميسر، أخبار: ٨٣؛ ابن القلانسي، ذيل: ٢٠٣.

(٨٩) ابن ميسر، أخبار: ٦٠.

(٩٠) ابن القلانسي، ذيل: ١٤١؛ ابن ميسر، أخبار: ٦٩.

(٩١) حول تركة الأفضل انظر: ابن ميسر، أخبار: ٧٩؛ ابن خلّكان، وفيات ٢: ٤٥١.

الأفضل في نفع التمرد والقبض على نزار وأنصاره^(٩٢). والآخر باسم المستعلي، ولا يختلف في مضمونه عن الأول. ومن الواضح أنّ هذين السجلين صدرا بإشراف الأفضل، كجزء من جهوده الرامية إلى معالجة التمرد التزاري الذي شكّل خطورة حقيقية على حكمه.

في إثر وفاة المستعلي سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، أقام الأفضل في الخلافة ولده أبا عليّ ونعت بالأمير بأحكام الله، وهو طفل لم يتجاوز الخامسة^(٩٣). وبذلك مارس الأفضل حكم مصر لأكثر من ثمانية وعشرين عامًا ٤٨٧-٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م، من دون وجود أيّ مرجع أعلى فعليّ، فكان حكمه أقرب إلى النظام الديكتاتوريّ الذي يكتب شرعيّته من خلال امتلاكه عنصر القوّة، لا من خلال تفويض مرجع أسمى. بل قام بنقل مقرّ الحكومة من القاهرة إلى النسطاط حيث قصره المسمّى «دار الملك»^(٩٤). واتخذ لنفسه وزيرًا وحشدًا من المساعدين حتّى إنّ ابن البطانحيّ الذي كان بمثابة وزير للأفضل، أصبح بعد وفاة سيده وزيرًا للخليفة الأمر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ثمّ أعدم بعد أن قضى في الوزارة أربع سنوات ٥١٩هـ/١١٢٥م^(٩٥).

إنّ السمة العامّة التي اتّصف بها عهد الأفضل هي سياسة الانكفاء والعزلة. فقد تقلّصت اهتمامات مصر الخارجيّة إلى أدنى الحدود، وتراجعت النشاطات الدعاويّة، بل إنّ الأفضل نفسه لم يبدِ حميّة للمذهب الفاطميّ، ممّا جعل المؤرّخين ينسبونه إلى مذهب السنة^(٩٦)، كما سينسبون ولده فيما بعد إلى الإماميّة^(٩٧). والواقع أنّ التصنيف المذهبيّ لوزراء السيف في مصر، وإن كان يتفق مع طابع التسامح الدينيّ والفكريّ

(٩٢) السجّلات المستصريّة، ٣٥: ١٠٩-١١٨؛ ابن ميتر، أخبار: ٦١-٦٢.

(٩٣) ابن ميتر، أخبار: ١٧٠؛ ابن الفلانسّي، ذيل: ١٢٨.

(٩٤) خطط ٢: ٢١٢؛ إنعماظ ٣: ٣٧-٤٠.

(٩٥) إعتقل عام ٥١٩هـ/١١٢٥م وأعدم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م؛ ابن ميتر، أخبار: ١٠٤.

١٠٦.

(٩٦) ابن الفلانسّي، ذيل: ٢٠٤.

(٩٧) ابن ميتر، أخبار: ١١٧.

اللذين عرف بهما الفاطميون، فإنه مبنَى على الاستتاج والتخمين، ويستند في الغالب إلى مؤشرات سلوكية قد تكون ناجمة عن فروق وتمايزات في شخصية كل من هؤلاء الوزراء، وطريقته في إدارة الحكم والتعامل مع القوى أو المذاهب الأخرى.

وفي الوقت الذي شنت فيه الخلافة العباسية الحملة الإعلامية الثانية، أو «حرب النسب» سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م^(٩٨)، اشتدَّ فيه الجهد السلجوقي لانتزاع ما تبقى من بلاد الشام من الفاطميين. فاستولى الأراتقة على بيت المقدس واعتقلوا خلف بن ملاعب صاحب آقامية الموالي لمصر سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م^(٩٩) وأحبطوا محاولة رضوان بن كرش صاحب حلب إقامة الدعوة للمستنصر التي لم تمتد سوى أربعة أسابيع من عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م^(١٠٠)، سيما أن الأفضل لم يتحلَّ بالصفات العسكرية التي عرف بها أبوه، ولم يبدِ استعداداً للنشاط العسكري الخارجي حتى عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وهو العام الذي وصل فيه الفرنج إلى آسية الصغرى، وشرعوا في حصار إنطاكية^(١٠١).

وخلاصة القول يمكن النظر إلى تسلّم الأفضل مقاليد الأمور في مصر بعد وفاة والده والخليفة، واقصائه تزاراً عن منصب الخلافة، بمثابة مفترق حاسم في طابع الدولة الفاطمية للأسباب التالية:

أ - إنحسرت أهميّة الدعوة الفاطمية وانتقل مركزها إلى فارس وبلاد الشام.

ب - نتج عن انقسام الدعوة تمزّق في الدولة والولاءات السياسية.

ج - تميّز عهد الأفضل بتفوق السلطة، والانغماس في المشكلات الداخلية.

د - توقفت الخلافة الفاطمية عن ممارسة دورها كمؤسسة دينية لها أهميّة المرجع في تقرير السياسات المصرية الداخلية والخارجية.

(٩٨) ابن ميثر، أخبار: ١١٧.

(٩٩) ابن ميثر، أخبار: ٦٣؛ ابن القلانسي، فيل: ١٣٢.

(١٠٠) ابن ميثر، أخبار: ٦٤؛ ابن القلانسي، فيل: ١٣٣.

(١٠١) ابن القلانسي، فيل: ١٣٤؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ١٤٦.

ثانياً - الأوضاع الاقتصادية والأزمة العامة

كان من المؤلف في مصر وبلاد الشام والعراق، عبر التاريخ، وقوع أزمات غذائية، شبه دورية، ناجمة عن تقلب العوامل المناخية، وتدني كميات المياه بين عام وآخر. وغالبًا ما كان الجفاف يترافق بارتفاع حاد في أسعار المواد التموينية وخاصة القمح، فتقع المجاعات تلوها الأوبئة، مما كان يؤدي بأعداد كبيرة من السكان، ويهدد الريف والمدينة على حد سواء بالخراب. غير أن مصر انفردت عن غيرها من أقاليم الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، بأن حياتها الاقتصادية ارتبطت على الدوام بمنسوب النيل الذي كان يضمن لها كميات وفيرة من المحاصيل، سيما في السنوات التي يبلغ فيها مستوى الفيضان حدًا مناسبًا، وهو وفق مقياس العصر الإسلامي ثمانية عشر ذراعًا في مصر الدنيا، وستة عشر ذراعًا في مصر العليا^(١٠٢). أما ما زاد على ذلك أو نقص فإنه يعرض الأراضي الزراعية والقرى لخطر مزدوج: القحط أو الغرق. وقد عرف عن الخلافة الفاطمية اهتمامها الشديد بتحسين نظم الري في مصر وتطوير وسائل الزراعة، حتى إن الخليفة المعز وضع قيودًا صارمة على إذاعة المعلومات المتعلقة بمنسوب النيل^(١٠٣) الذي كان يضبط قياسه بانتظام من قبل هيئة حكومية مختصة تدعى «المقياس» ومقرها في جزيرة الروضة في النيل، خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى خوف السكان من الفيضان أو الجفاف، فيدفعهم ذلك إلى إخفاء المؤن والتسبب في زيادة أسعارها. فحصر أمر إعلان مستوى الفيضان بالخليفة أو من ينوب عنه..

كما درج الفاطميون على المبالغة في الاحتفاء بعيد «وفاء النيل»، إذ شارك الخلفاء شخصيًا، وسط مظاهر احتفالية بندر وزيتها في مكان آخر من العالم، حيث يرتدي رجال الدولة، وعلى رأسهم الخليفة، أزهم الثياب وتمزف الأبراق وتضرب الطبول وترقرق الرايات وسط مظاهر

(١٠٢) أنظر من المقياس: المقرئزي، الخطط ١: ١٠٥-١٠٨.

(١٠٣) من الاحضالات بعيد وفاء النيل انظر: المقرئزي، الخطط ٢: ٣٥٧-٣٧٢.

الزينة. وفي ذروة العيد يقوم المشرف على المقياس بتخليق عمود المقياس، أي غمرة بالعطر تكريمًا لهذا الرمز وتعبيرًا عن الشكر للنيل ووفائه لمصر وسكانها^(١٠٤).

وتشير بعض الإحصائيات، إلى أنّ عدد منشآت الريّ بلغ زمن الفاطمية ١١٧ ترعة وثمانية خلجان وخمسة وعشرين بحرًا^(١٠٥).

يبد أنّ مصر تعرّضت لسلسلة من الأزمات الاقتصادية الحادة في أواخر النصف الأوّل ومطلع النصف الثاني من القرن الخامس/الحادي عشر. فمسوب النيل تناقص في السنوات ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و٤٤٧هـ/١٠٥٥م و٤٥٧هـ/١٠٦٤^(١٠٦) وعانت مصر نقصًا شديدًا في الحبوب وارتفاع أسعارها، ممّا دفع المستنصر إلى طلب القمح من القسطنطينية عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م^(١٠٧). لكنّ هذا الإجراء لم يحلّ الأزمة وتعرّضت مصر في السنوات ٤٥٧-٤٦٤هـ/١٠٦٤-١٠٧١ لأخطر أزمة اقتصادية عرفت بسنين الشدة، واقترنت باسم الخليفة المستنصر إذ دُعيت «الشدة العظمى» أو «الشدة المستنصرية»^(١٠٨).

وتفسّر الأزمة هذه بالخلافات التي حلّت بالدولة، والصراع والتنافس بين رجال البلاط، وضعف الوزراء^(١٠٩). وفي مكان آخر يربطها المقرئزيّ بارتفاع الأسعار^(١١٠). والواقع أنّ الأساس الاقتصاديّ في الأزمة العامة ليس بخافٍ، سيّما وأنّ مصر عرفت بغناها وحضارتها المستندة إلى خصوبة أرضها وعطاء النيل السنويّ. وهذا من أبرز العوامل التي جعلتها مطعمًا للفتنة والقوى الخارجيّة. كما أنّ الدولة والمجتمع في

(١٠٤) المقرئزيّ، الخطط ٢: ٣٥٧-٣٧٢.

(١٠٥) ابن ممتي، قوانين الدواوين: ٢٠٥-٢١٦.

(١٠٦) المقرئزيّ، الخطط ٢: ١٢٦-١٣٠.

(١٠٧) المقرئزيّ، الخطط ٢: ١٢٦؛ ابن بئر، أخبار: ١٣.

(١٠٨) ابن ميسر، أخبار: ٥٥.

(١٠٩) ابن ميسر، أخبار: ٥٨؛ المقرئزيّ، إفاة الأمة: ٢٢ - ٢٣.

(١١٠) الخطط ٢: ١٢٦.

مصر يتأثران مباشرة بحالة النيل. وقد لاحظنا كيف استغل الأتراك الأزمة الاقتصادية، وافتقار الدولة، وزادوا من ضغوطهم على الخليفة مطالبين بمرتباتهم. وما إن أبدت الدولة عجزها عن الاستجابة انقضوا على خزائنها وعلى قصر الخلافة، وقاموا بنهبها جهاراً أمام مرأى الخليفة^(١١١). على أن الأوضاع السياسية مارست بدورها أثراً ملمّراً على النشاط الاقتصادي بحيث ماهمت الحرب الأهلية والقوضى، وأعمال اللصوصية، إلى جانب المجاعات والأوبئة، في وفاة الكثير من السّكان، وهجرة أعداد كبيرة. فافتقدت الأراضي من يعمل فيها، رغم أن النيل بلغ في بعض السنين المنسوب الملائم للزراعة^(١١٢). ونجد الفساطط التي كانت شديدة الازدحام والنشاط الاقتصادي قد خلت تقريباً من السّكان^(١١٣). ويؤكد ابن سعيد أن مضر كانت تستورد القمح من «الأندلس وبلاد التصارى وكان التجار الذين يجلبونه يأخذون فيه الجوهر والياقوت وغير ذلك من ذخائر مصر»^(١١٤). ومن المؤلف أن تمارس الدولة المصرية نوعاً من الإشراف على تخزين المحاصيل لمواجهة سنوات القحط. ويذكر ابن الطوير أن «الأهراءات السلطانية» كانت أيام الدولة الفاطمية موزعة في أماكن كثيرة من القاهرة. وكانت تحوي ٣٠٠ ألف إردب غلات، وكان فيها مخازن ولها حماة من الأمراء والمشارفين، وتصل إليها المراكب بأصناف الغلات إلى ساحل مصر والمقس، والحمالون ينقلون المؤن بموجب بيانات رسمية توزع حسب الجهات المعنية^(١١٥).

غير أن احتكار الدولة الحبوب كان له آثار سلبية في بعض الحالات خاصة حين تمارس من خلاله عملية المضاربة وهذا ما يدعى «المتجر».

(١١١) الجلات المتصرية، ٥٦؛ ابن سعيد، المغرب: ٢٢، ٧٩.

(١١٢) ابن سعيد، المغرب: ٢٢، ٧٩؛ ابن ميسر، أخبار: ٥٨.

(١١٣) المقرئزي، الخطط ٢: ١٣٠-١٣١.

(١١٤) ابن سعيد، المغرب: ٧٩.

(١١٥) المقرئزي، الخطط ٢: ٣٤٧.

وفي مواجهة أزمة سنة ١٠٥٢هـ/١٤٤٤م اقترح اليازوري الذي كان قاضيًا للقضاة، على الخليفة المستنصر بأن يصرف النظر عن اتخاذ المتجر من الفلال لأنها قليلة الفائدة ومقلّبة السعر، وأن يتخذ المتجر من موادّ ثابتة كالحديد والصابون والخشب والرصاص والعسل، فسمع الخليفة رأيه وعمل على تنفيذه^(١١٦).

أما فيما يخصّ أزمة عام ١٠٥٥هـ/١٤٤٧م فقد حاول اليازوري التخفيف من حدّتها حين منع تسليم الموسم إلى التجار المسلفين، وسمح لهم باسترداد ديونهم بعد حساب نسبة ربح تعادل ثمن مجمع الدين. وحدّد سعر بيع التليس^(١١٧) الواحد بثلاثة دنانير في حين وصل سعره أثناء المضاربة إلى ٨ دنانير. وأمر بتسليم المخازن مخصّصات ثابتة من القمح لصناعة الخبز وأنّضح أنّ احتياجات العاصمة اليومية كانت بحدود ألف تليس، منها ٣٠٠ تليس للقاهرة و٧٠٠ تليس للفسطاط^(١١٨).

جاء تمرّد الأتراك العامّ ١٠٦٢هـ/١٤٥٤م وحروبهم مع العيد ليضيف بعدًا جديدًا إلى الأوضاع الاقتصادية المتردّية، وإضافة إلى ما نجم عنها من خسائر بالأرواح فإنّها دمّرت جانبًا هامًا من القوى الإنتاجية في الريف والمدينة، وفاقمت من حالة الفوضى التي عكستها الأزمة الإدارية الناشئة منذ مقتل اليازوري ١٠٥٨هـ/١٤٥٠م. فعانت البلاد بدءًا من العام ١٠٦٥هـ/١٤٥٧م محنة قاسية أسببت المصادر التاريخية في وصفها بشيء من المبالغة المعهودة^(١١٩).

وزاد في الأمر سوءًا أنّ ناصر الدولة بن حمدان لم يكتفِ مع أنصاره الأتراك بنهب منطقة الريف في الدلتا، وجمع الضرائب من سكّانها، بل لجأ إلى قطع طريق المؤن من الوجه البحريّ إلى العاصمة، ممّا أجبر

(١١٦)المقريزي، الخطط ٢: ٣٤٧.

(١١٧)التليس: مكّال قمح يساوي ١٥٠ رطلًا أو ٨ ريات. أنظر المقريزي، المعقّى ٣: ٣٨٧.

(١١٨)المصدر نفسه: ٣٨٦-٣٨٧.

(١١٩)ابن ميسر، أخبار: ٣٨، ٥٥؛ أبو المحاسن، النجوم ٥: ١٠-١٥.

الخليفة على قبول شروط المتعديين في التحكم بالمدينة العام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م^(١٢٠). وكرر هذا الإجراء مرة أخرى في العام نفسه. ويشير المقرئزي إلى أن أعمال النهب والسرقة طالت الأراضي الزراعية، فقد أخذ المقطعون الكبار والزعماء المتفدون بالاستيلاء عنوة على أراضي الديوان، وضّمها إليهم بدون أن يقوموا بأية التزامات مالية تجاه الدولة^(١٢١).

بيد أن بدرًا الجمالي اتخذ من ضمن خطته، الهادفة إلى فرض الاستقرار، سلسلة من الإجراءات الاقتصادية ساهمت في وقف حالة التدهور وعودة الحياة الطبيعية. فالمقرئزي يذكر أنه «أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترقّت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه»^(١٢٢)، وانعكس ذلك على التجارة التي تعرّضت بدورها للكساد بعد أن غادر معظم التجار البلاد، أيام الشدة، خوفًا على أرواحهم وأموالهم، وقد شجّعهم على العودة ما أبداه الجمالي من إنصاف وضمّان أمنهم وسلامتهم^(١٢٣). ويذكر أن الجمالي اتمّ بالمنشآت العامة، فقد بنى عددًا من الأبواب في القاهرة كباب زويلة الكبير وباب النصر وباب الفتوح سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وهي أبواب كانت موجودة لكنّه نقل مكانها أو عدّل فيها^(١٢٤). وشجّع الناس على السكن في القاهرة بعد أن سمح باستعمال أبقاض المساكن التي هجرها أصحابها في الفسطاط^(١٢٥). فعادت المدينة تغصّ بالسكان. كما استؤنفت في أيامه حركة الحجّ والتجارة في الطريق الصحراويّ إلى ميناء عيذاب عبر مدينة قوص نحو الحجاز واليمن والهند^(١٢٦).

(١٢٠) المقرئزي، الخطط ٢: ١٢٩.

(١٢١) المصلى نفسه ١: ١٥٢.

(١٢٢) المقرئزي، الخطط ٢: ٢١٠؛ المقفى ٢: ٤٠١.

(١٢٣) المقرئزي، الخطط ٢: ٢١٠.

(١٢٤) المرجع نفسه: ٢٠٦-٢٠٨؛ المقفى ٢: ٣٩٩.

(١٢٥) المقرئزي، الخطط ٢: ١٣١؛ المقفى ٢: ٣٩٨.

(١٢٦) المقرئزي، الخطط ١: ٣٥٧؛ ناصر خسرو، سفرنامه: ١١٦-١١٨.

ويذكر المقرئزي أن خراج مصر أيام بدر الجمالي حَقَّق زيادة ملحوظة، فقد بلغ العام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م ٣,١ مليون دينار، في حين كان قد وصل عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م إلى ٢,٨ مليون، فتكون الزيادة ٣٠٠ ألفٍ «مما أعرب عنه حسن العمارة وشمول العدل»^(١٢٧).

على أن الأفضل، رغم قلة اِكترائه بالشؤون الخارجية والعسكرية قبيل الغزو الصليبي، واهتمامه بجمع الثروة والتنعم بها، ومظاهر الأبهة على حساب الخلافة، فإنه بالمقابل تابع سياسة أيه الإصلاحية في المجال الاقتصادي. فشجع الحركة التجارية وخصَّ التجار بمعاملة حسنة، ولم يلجأ منهم إلى المصادرات^(١٢٨). لكنه أنفق أموالاً طائلة. فالمؤرخون يتحدثون عن ثروة الأفضل التي ورثها عنه الخليفة الأمر ٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م بعد مقتل وزيره على نحو أسطوريّ يذكّرنا بحكايات الشرق، ممَّا يعكس مدى ثروة مصر وغناها من جهة، ومن جهة أخرى جشع هذا الوزير وهوسه في تكديس الثروة^(١٢٩). وقد لخصَّ أبو المحاسن هذه الصورة بقوله: «فقد خلف الأفضل من الأموال والنقود والقماش والمواشي ما يستحيا من ذكره كثرة»^(١٣٠).

وتعرّضت الصناعة بدورها لأفدح الأضرار في سنوات الشدة. فالمعروف أن الفسباط كانت أكبر تجمّع صناعي في مصر عدا عن كونها مركزًا تجاريًا عالميًا في القرن الأول من الحكم الفاطمي لمصر. فالفاطميون أرادوا للقاهرة أن تكون مركزًا سياسيًا وإداريًا، وحاضرة للخلافة^(١٣١)، ممَّا ساهم في قيام نوع من التخصص. وساعد في إعطاء الطابع التجاري والصناعي للفسباط وجود ميناء نهريّ ممتاز يتصل عبر النيل بالوجهين البحريّ والقبليّ، فتصل إليه حاصلات مصر، وينقل عبره

(١٢٧) المقرئزي، الخطط ١: ١٧٨.

(١٢٨) ابن ميسر، أخبار: ٨٣.

(١٢٩) حول ثروة الأفضل انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين: ٨-٩.

(١٣٠) أبو المحاسن، النجوم ٥: ٢٢٢؛ ابن ميسر، أخبار: ٧٩.

(١٣١) المقرئزي، الخطط ٢: ١٨٠.

إلى الخارج منتجات مصر المختلفة. وتصف المصادر المعاصرة أسواق القسطنطينية وفنادقها ومخازنها بكثير من الإعجاب^(١٣٢). ويعدّ فيها ابن دقماق أكثر من ستين مصنعًا للسكر^(١٣٣). وينقل عن ابن سعيد قوله إنّ «مدينة القسطنطينية أرخص أسعارًا من القاهرة لقرب النيل منها، فالمراكب تصل بالخيرات تحطّ بها. ومدينة القسطنطينية مطابخ السكر ومطابخ الصابون ومسابك الزجاج ومسابك الفولاذ ومسابك النحاس والوراقات ممّا لا يعمل في القاهرة ولا في غيرها من الديار المصرية»^(١٣٤). هذا بالإضافة إلى صناعة القسي وأنواع القماش الفاخر والصناعات الجلدية^(١٣٥). بيد أنّ هذا النشاط لم يبقَ له وجود يذكر في مده الأزمة. فالحرب الأهلية دمّرت الكثير من المنشآت، وقتل أو هرب معظم السكّان، وغادرت الجاليات الأجنبية إلى المدن الساحلية، حتّى تحوّلت القسطنطينية إلى خراب^(١٣٦)، وبقيت كذلك إلى أيام الأفضل الذي نقل مقرّه إليها بعد أن بنى دار الملك وأتبعه بنقل الدواوين وأجهزة الدولة^(١٣٧)، فأخذت القسطنطينية تستعيد ماضيها بالتدريج.

ثالثًا - الحالة الاجتماعية والقوى المتصارعة

تعود جذور التناقضات الاجتماعية في مصر، إبان النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلاديّ إلى حقبة مبكرة. غير أنّ تلك التناقضات لم تكن معلنة وسافرة. فالفاطميون الذين عرف عنهم ميلهم إلى التسامح المذهبي والعرقى، اعتمدوا بالفعل على قوى متعدّدة العناصر. ففي البداية شكّل المغاربة، من مختلف قبائل البربر لا سيّما

(١٣٢) حول أسواق القسطنطينية انظر: ابن دقماق، الانتصار: ٣٢-٤٦؛ ناصر خسرو، سفرنامه: ١٠٢-١٠٣.

(١٣٣) ابن دقماق، الانتصار: ٤١-٤٦.

(١٣٤) ابن دقماق، الانتصار: ١٠٨.

(١٣٥) المقرئ، الخطط ٢: ١٨٥.

(١٣٦) المصدر نفسه: ١٢٦.

(١٣٧) ابن ميسر، أخبار: ٧٦-٧٧؛ أبو المعاسن، النجوم ٤: ٩٢.

كتابة، الكتلة الرئيسة في الجيش الفاطمي الذي فتح مصر واستقر في العاصمة الجديدة القاهرة منذ أن شرع في بنائها جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م^(١٣٨). ودخل عنصر الصقالبة، وهم رقيق من أصول أوريية، في بنية هذا الجيش، وإن كلفوا بمهام ذات طابع خاص كالحراسة أو خدمة الخلفاء والقادة.

غير أن عنصرًا جديدًا ازداد حجمه وأثره في خلافة العزيز بالله العراق وفارس إلى مصر عبر بلاد الشام. وكان الأتراك مستعدين لتقديم خدماتهم العسكرية التي اشتهروا بها مقابل أعطيات محددة. فعمد العزيز إلى اصطناعهم وتقديمهم على البربر مما أوقع التحاسد بين الطرفين^(١٣٩). وفي خلافة الحاكم فتح الباب أمام السودان للدخول في الجيش المصري على سبيل الشراء. وقد استجاب هذا الخليفة لإلحاحهم في شرائهم واصطناعهم^(١٤٠). ولم يحل القرن الخامس/الحادي عشر حتى كان العبيد يمثلون قوة اجتماعية مهمة، حتى إن أمّ المستنصر كانت من السودان، وهي التي ساهمت في زيادة أعدادهم، وشجعتهم وساندتهم لدى تفجر الحروب بينهم وبين الأتراك، عدا عن نفوذها في البلاط، ودورها البارز في تقرير شؤون السياسة الداخلية والاقتصادية^(١٤١).

وهكذا عرف في مصر الفاطمية نظام الطوائف العسكرية، وهو تعبير ذو مدلول مزدوج إثني - عسكري. وبينما شكّل المغاربة والأتراك والسودان القوى الرئيسة في الجيش المصري، فقد وجدت عناصر أخرى أقل أهمية كالصقالبة والديلم والروم، واستمرّ العرب يمارسون تأثيرهم من خلال البنى القبلية التي انتشرت في مصر، ولم يشكّلوا فرقًا نظامية في الجيش الفاطمي بل قدّموا خدمات محددة في ظروف مختلفة.

(١٣٨) المقرئ، المقفى ٣: ٨٣-٩٥.

(١٣٩) ابن سعيد، المغرب: ١٠٤-١٠٥؛ المقرئ، المقفى ٢: ٣٠٩.

(١٤٠) ابن سعيد، المغرب: ٦٧.

(١٤١) المقرئ، المقفى ٣: ٣٦٨-٣٧٤؛ الخطط ٢: ١٢٧-١٢٨.

احتفظت القوى الثلاث الكبرى في الجيش المصري بمزايا خاصة جعلتها طبقة ذات امتيازات، وإن كان موقع كل منها وحضته يختلفان مع اختلاف الظروف وتبدل ميزان القوى. وشكّل أمراء هذه الفرق وقادتها aristocratie عسكرية لها مصالحها ونفوذها المتنامين. وشارك العسكر في امتيازاتهم الفذة العليا من رجال الدولة، وكبار موظفي الدواوين وحاشية القصر، ورجال القضاء والدعوة^(١٤٢)، فضلاً عن كبار التجار والوجهاء. فامتلكوا الثروات وساهموا في الشؤون العامة: هذه الارستقراطية الكبرى تسلّم العسكر قمتها منذ خمسينات القرن الخامس/الحادي عشر^(١٤٣).

وبالمقابل وجدت طبقة أخرى قوامها عوام المدن من الحرفيين والصناع وأصحاب المهن والعمال والأجراء والباعة والمطلون عن العمل. في حين استقرّ في الريف بوجهيه البحري والقبلي أعداد كبيرة من الفلاحين الذين كانوا متأثرين إلى حدّ كبير بأوضاع الدولة وميادتها، وقد كانوا ضحية الأزمة الشاملة التي عصفت بالدولة في سنين الشدة ٤٥٧-٤٦٦هـ/١٠٦٤-١٠٧٣م^(١٤٤).

ورغم الدور المهمّ الذي مثله المغاربة في تاريخ الدولة الفاطمية، فإننا نلاحظ خضوعهم لسيدهم الخليفة في المدة الأولى من حكم الفاطميين مصر. وتصف المصادر شكوى أهل مصر من محاولة المغاربة السكنى في بيوتهم بالقوة، ومبادرة الخليفة المعزّ إلى إخراجهم من القسطنطينية والزامهم بالسكن في عين شمس سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م^(١٤٥). ولكن الأمر اختلف منذ خلافة الحاكم ٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م حيث ظهرت مؤشرات تمرّد لدى المغاربة الذين طالبوا بعزل الوزير عيسى بن

(١٤٢) أنظر تصنيف رجال الدولة الفاطمية في المقرئبي، المخطوط ٢: ٢٤٠-٢٤٣؛ ومرتباهم: التفتشدي، ص ٣: ٤٩٠-٥٣٢.

(١٤٣) أنظر حول تطاول العسكر على الخلافة أيام الأزمة الكبرى، ابن ميسر، أخبار: ٥٨.

(١٤٤) المقرئبي، المخطوط ٢: ٣٠ يقول: «والليل يمرّ وتزلّ فلا يجد من يزور».

(١٤٥) ابن ميسر، أخبار: ١٦٤.

نسطورس والاستعاضة عنه برجل من المغاربة^(١٤٦). وتمّ لهم ذلك بالفعل حيث تسلّم الحسن بن عمّار وأمر بتقرير أحوالهم فيما يطلق لهم من الرزق واستحلافهم فقرر الأمر بينهم وبين الخليفة بعد خطاب طويل على أن يطلق لهم ثمانى إطلاقات في كلّ سنة. .^(١٤٧) وفي العام التالي ٣٨٧هـ/٩٩٧م اصطدم الأتراك بالمغاربة، فابن عمّار الذي «بالغ في تقريب كرامة وأكثر من العطاء لهم، وقطع أكثر رسوم أولياء الدولة من الأتراك، وغيرهم»، تعرّض لهجوم وألزم بالإقامة في منزله^(١٤٨).

بدءاً من خلافة المستنصر نشهد تراجعاً ملموساً في نفوذ المغاربة، حيث تکرّس استخدام مصطلح آخر يُشير إلى وجود قوى مقابلة، وتعني به «المشاركة»^(١٤٩)، وإذا كان مصطلح «المغاربة» يدلّ بوضوح على قبائل البربر القادمة من المغرب، وقد يدخل بضمته الصقالبة، فإنّ مصطلح المشاركة بقي فضفاضاً، يدخل فيه بقية العناصر وإن شكّل الأتراك في تلك الآونة، والأرمن فيما بعد، عموده الفقريّ.

وقد لاحظنا الأثر الذي تركه الصراع الذي نشب بين القوتين اللتين برزتا أيام المستنصر وهما الأتراك والسودان، والذي حسم لصالح الأتراك منذ عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م^(١٥٠). هذا الصراع الذي اتّخذ هيئة حروب أهليّة وتخلّله أعمال النهب والحرق وقطع الطرق والمصادرات، لم تقف نتائجه وآثاره بانتهائه، بل بقي الأتراك في سياق تمرّدهم على الخليفة يمارسون سياسة التخريب ذاتها ممّا جرّ على الزراعة أسوأ كارثة، فهرب معظم سكّان الأرياف من أراضيهم، وأصبح النيل يفيض في بعض السنوات بدون أن يجد مَنْ يعمل في الأرض^(١٥١). على أنّ نظام القنّانة لم يكن

(١٤٦) تزل ابن نسطورس عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م. ابن ميسر، أخبار: ١٧٩-١٨٠.

(١٤٧) ابن ميسر، أخبار: ١٧٨؛ ابن الصيرفي، الإشارة: ٥٥-٥٦.

(١٤٨) ابن ميسر، أخبار: ١٨١؛ المقرئزي، المقفى ٣: ٤٣٣-٤٤١.

(١٤٩) السجلات المستصرية، ٥٦: ص ١٨٣؛ ابن القلانسي، ذيل: ٤٩.

(١٥٠) ابن ميسر، أخبار: ٣٣؛ المقرئزي، الخطط ٢: ١٢٨.

(١٥١) المقرئزي، الخطط ٢: ١٣٠؛ ابن سعيد، المغرب: ٧٩.

معروفًا في العصر الفاطمي، بل أدخله الأيوبيون إلى مصر مع قواعد الإقطاع العسكري. فأصبحت الأرض المقطعة بمن عليها من الفلاحين حقًا لصاحب الإقطاع ما دام يزدي واجباته تجاه الدولة^(١٥٢).

ذكرنا أن القاهرة بنيت لتكون حصنًا عسكريًا أو مركزًا إداريًا^(١٥٣).

فأفردت فيها الأحياء لسكن الجند، واختص المقاربة في معظمها ثم تلاهم الأتراك والديلم ولحقهم السودان. وشير ابن دقماق إلى أن خطط القاهرة نسبت إلى الجماعات التي استقرت فيها منذ القديم، مثل كتامة وزويلة والروم والبرقية والباطلية^(١٥٤)، ويضيف المقرئ حارة الأتراك وحارة الديلم^(١٥٥). وسوف يتسع نطاق هذه الحارات والعناصر المنسوبة إليها مع بداية القرن الخامس/الحادي عشر.

ويلاحظ أن طوائف الجند في مصر تنسب من حيث التسمية إلى أكثر من مرجع فمنها ينسب إلى أرومة عرقية كالأتراك والديلم والعرب والأرمن والروم والصقالبة، ومنها إلى عائلية قبلية مثل كتامة وصنهاجة ولواتة، أو إقليم كالسودان، أو إلى خليفة أو حاكم كالعزيزية والكافورية والإخشيدية، أو إلى قائد أو خادم كالفرحية والشرابية والجيوشية إلخ^(١٥٦).

وإذا كانت القساط قد اختصت بسكانها، منذ الفتح، بطون القبائل العربية إلى جانب القبط السكان الأصليين، فإنها أصبحت في العصر الفاطمي تنص بمختلف الأجناس والأديان والمذاهب. فقد عاش فيها مثلًا أعداد كبيرة من اليهود الذين عملوا في الإدارة والصرافة والتجارة والطب والصياغة، من دون أن يعرفوا فيها ما يدعى بنظام الغيتو Ghetto حيث سمح لهم المصريون بالعيش بين أظهرهم بلا تمييز^(١٥٧). هذا إضافة

(١٥٢) المقرئ، الخطط ١: ١٥٣.

(١٥٣) المقرئ، الخطط ٢: ١٨٠.

(١٥٤) ابن دقماق، الانتصار: ٣٧.

(١٥٥) المقرئ، الخطط: ١٧٧.

(١٥٦) المقرئ، الخطط ٢: ٣٢٢-٣٢٣، ٣٢٥، ٤٢٠-٤٢٦.

(١٥٧) تشير أروان الجنيزة بالقاهرة إلى مدى تسامح الناطقين تجاه اليهود.

إلى النصارى من القبط والروم والأرمن. وبإستثناء الإجراءات التي اتخذها الخليفة الحاكم ضد أهل النمة في الفترة ٣٩٥-٤٠٣هـ/ ١٠٠٥-١٠١٣م^(١٥٨)، فإن الخلافة الفاطمية وفرت لهم مناخاً من التسامح نادر المثال في العصر الوسيط. وتشير قائمة الوزراء ورؤساء الدواوين والمستشارين إلى مدى اعتماد الفاطميين على أهل الذمة، وعلى أتباع المذاهب الأخرى من المسلمين في إدارة شؤون الدولة، والقيام بأعباء الحكم^(١٥٩).

أما في الثغور الساحلية، وخاصة الإسكندرية ودمياط ورشيد وتيس، فإن التنوع الإثني أوضح منه في العاصمة، بل إن الأكثرية فيها أو في بعضها على الأقل تشكلت من أصول مختلفة. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى كونها مراكز للتجارة الدولية، ومنافذ تجارية على المتوسط. يضاف إلى ما ذكرناه أن بعض المناطق في مصر عرفت استقرار جماعات قبلية، أو خضعت لسيطرة قوى محلية. فبعض القبائل العربية مثل جبهة والجعافرة والثعالبة سكنت الصعيد، وأخرى مثل قيس وفزارة وسليم استقرت في الوجه البحري^(١٦٠)، في حين سيطر السودان على معظم الصعيد وعلى قطاعات واسعة من الفسطاط وبعض أحياء القاهرة، واختص المغاربة، وخاصة لوانة^(١٦١)، بمحيط الإسكندرية والوجه البحري، لكن الأتراك لم يعد لهم قوى تذكر خارج العاصمة.

وإذا كان الصراع بين القوى المتنافسة قد برز أيام الحاكم بين المغاربة والأتراك، فإنه اتخذ طابعاً سياسياً تحكّم الخليفة بيوترته. ولجأ إلى إقامة توازن بين القوتين. ولعله أراد من الاعتماد على السودان تحقيق هذا التوازن، فزاد عددهم بالتدريج^(١٦٢). وحين حلّ عهد المستنصر

(١٥٨) ابن سديد، المغرب: ٥٢-٥٣؛ المقرئ، الخطط ٢: ٢٥٠-٢٥٢.

(١٥٩) محمّد جمال سرور: الدولة الفاطمية: ٨٦-٩٠.

(١٦٠) ابن ميسر، أخبار: ٤١-٤٤؛ المقرئ، المقفى ٢: ٣٩٨.

(١٦١) ابن ميسر، أخبار: ٥٨؛ المقرئ، المقفى ٢: ٣٩٨.

(١٦٢) ابن سديد، المغرب: ٦٧.

أصبح الأتراك قوّة بصعب ضبطها سيّما وأنّ المغاربة انسحبوا من الحلبة بعد مقتل زعيمهم الحسن بن نجّار على يد الأتراك سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م^(١٦٣). وتحوّلوا إلى عنصر ثانويّ، فاضطرّ إلى الإكثار من السودان حتّى بلغ تعدادهم وفق بعض المصادر خمسين ألفاً^(١٦٤).

وتشير مجريات الصراع الذي دار بين الطرفين، الأتراك والسودان، بدءاً من عام ٤٥٤هـ، إلى أنّ السودان، رغم تفوّقهم العدديّ على الأتراك، فقد أصيبوا بخسائر فادحة في معارك القاهرة والصعيد والإسكندرية^(١٦٥). ومع وصول بدر الجماليّ سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م كان العبيد قد خسروا معظم مواقعهم. وانكفأ والي الصعيد منذ عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م. ومع ذلك فقد هاجمهم الجماليّ سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م^(١٦٦). لقد غدا الأرمن القوّة الأبرز منذ تسلّم الجماليّ السلطة، وأخذ عددهم يتزايد بالتدريج بفضل سيل الوافدين الأرمن الذين كانوا قد غادروا آسيا الصغرى منذ أن طحتهم حروب السلاجقة مع الأباطورية البيزنطيّة، وبالتحديد بعد موقعة ملاذكرد العام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حيث أخذ بعض الأرمن بالتوجّه إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر^(١٦٧).

بيد أنّ الأرمن لم يشكّلوا أكثرية في الجيش المصريّ، بل سيطروا على المراكز القياديّة والمفاصل الأساسيّة فيه، وحلّوا محلّ الأرستقراطيّة التركيّة التي اضمحلّت ميامياً. وقد حاول المتصنر بعد وفاة الجماليّ في جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م التخلّص من نفوذ الأرمن، بإحياء التوازن مع الأتراك. فقد أراد أن يعهد بالوزارة إلى أحد أميرين تركيين كانا يتنازعا على هذا المنصب، هما نصر الدولة أفتكين، وأمير الدولة لاوون^(١٦٨). وحين قلّد هذا الأخير الوزارة أعلن قادة الجيش تمردهم

(١٦٣) قتل الأتراك ابن عمّار سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م. المقرئيّ، المقتى ٣: ٤٤٠.
(١٦٤) المقرئيّ، الخطط ٢: ١٢٦-١٢٧؛ ابن ميّتر، أخبار: ٣١.
(١٦٥) ابن ميّتر، أخبار: ٣٢-٣٣؛ المقرئيّ، الخطط ٢: ١٢٨.
(١٦٦) المجلّات المتصنريّة: ٥٧، ص ١٨٨؛ المقرئيّ، المقتى ٢: ٣٩٨-٣٩٩.
(١٦٧) ابن ميّتر، أخبار: ٥٢-٥٣؛ ابن الطير، ترجمة: ٤٦.
(١٦٨) ابن ميّتر، أخبار: ٥٤.

وهَدَدُوا الخليفة، «فقال المستنصر إذا أقمنا قضية امتل أمرنا، فقالوا إن أقمنا هذه القضية قطعناها بهذه السيف، وجرَدُوا أسياهم فأمر بإحضار الأفضل وربَّه مكان أبيه»^(١٦٩). وهكذا فشلت خَطَّة الخليفة وعاد الأرمن إلى الحكم من جديد في شؤون الدولة وتوجيه السياسة العامَّة وفق مصالحهم، حتَّى يمكن القول إنَّ الطابع الأرمني في الحكم غدا سمة من سمات هذه المدة^(١٧٠).

الخاتمة

وهكذا يبدو لنا أنَّ أوضاع الخلافة الفاطمية عشية اندلاع الحروب الصليبية كانت قد آلت إلى تغيّرات جذرية، ذلك أنَّ قوى جديدة تمكّنت من حسم صراعاتها على السلطة على حساب الخلافة التي تحوّلت إلى واجهة رمزية لا مضمون فعلياً لها. وغدت السياستين الداخليّة والخارجيّة تُرسمان وتقرّران من قبل الحاكم الفعليّ، أو السلطان^(١٧١) الذي مثل مصالح فئات من المسكر في غالب الأحيان، ممَّا يدعو المرء للتحقُّق تجاه القول بأنَّ سياسة مصر الخارجيّة في هذه الفترة كانت سياسة فاطمية بالمعنى الفعليّ. سيّما إذا قارنّا بينها وبين السياسة المصرية في عصر الخلفاء على امتداد القرن الأوّل من حياة الدولة الفاطمية ٣٥٨هـ/٩٦٨م-٤٥٠هـ/١٠٥٨م، والتي ارتكزت إلى مقرّرات إستراتيجية واضحة، عمادها. خيار الشرق، وبناء أمبراطورية عالميّة تحلّ مكان الدولتين الكبيرتين العباسية والبيزنطية^(١٧٢). وليس من قبيل المصادفة أن يعمل

(١٦٩) ابن الصيرفي: الإشارة: ٩٩.

(١٧٠) المقرئزي، المقفى ٢: ٤٠٢.

(١٧١) إستخدمت هذه العبارة للدلالة على انفراد الوزراء بالحكم وضعف الخلفاء:

التلشنديّ، صبح الأهدى ١٠: ٨٠، ٣١٠؛ المقرئزي، الخطط ٢: ١٦٤.

(١٧٢) لاحظ موقف الممّر الفاطميّ من هذه المسألة في حواراته مع شيخ كتامة، وأنّه

مشغول بكب تردّ عليّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخفّي... ولاعلموا

أنكم إذا لزمتم ما أمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر

المغرب... ابن سعيد، المغرب: ٤١.

الفاطميون على تحقيق التفوق البحري في المتوسط منذ بداية القرن الرابع/العاشر، وأن يستخدموا قاعدتهم في صقلية لغزو الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا، حتى فتحوا جنوة سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م، وأغاروا على كورسيكا وسردينيا ووصلوا حتى ساحل الريشيرا^(١٧٣)، وشهدت الجبهة الفاطمية - البيزنطية شمال المتوسط معارك متواصلة حقق فيها الفاطميون العديد من الانتصارات، وعلل أبرزها معركة رمطة ٣٥٤هـ/٩٦٥م التي تلقى فيها جيش الإمبراطور تقيفور فوكاس هزيمة منكرة على يد والي الفاطميين في صقلية الحسن بن علي الكلبلي^(١٧٤).

ثم إن الجبهة البيزنطية الفاطمية اتسعت بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م لتشمل الخطوط التقليدية البرية بين المسلمين والبيزنطيين. ولم يتمكن الخلفاء الفاطميون فقط من إيقاف توسع البيزنطيين الذين استولوا على حلب سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م ووصلوا في غزواتهم حتى بيت المقدس وتخوم بغداد، بل حققوا انتصارات مهمة جمعت الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني يوقف حروبه مع البلغار في أوربة^(١٧٥) وتجه إلى آسيا لمواجهة الخطر الفاطمي، الذي لخصته رسالة حاكم حلب الحمداني إلى الأمبراطور سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م إذ قال فيها: «متى أخذت حلب، أخذت إنطاكية، ومتى أخذت إنطاكية أخذت القسطنطينية»^(١٧٦). ومعروف أن الخليفة العزيز كان على رأس جيشه المتجه لقتال الروم حين توفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م^(١٧٧). وحقق الفاطميون في خلافة الحاكم انتصارين مهمين على البيزنطيين، الأول بحري هزم فيه الأسطول الفاطمي البيزنطي في مياه صور عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م، والآخر

(١٧٣) أنظر: عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب: ١٠٨-١٠٩.

(١٧٤) المقرئ، المقتضى ٣: ٤٣٦.

(١٧٥) ابن القلانسي، فيل: ٤٢-٤٤.

(١٧٦) ابن القلانسي، فيل: ٤٣.

(١٧٧) ابن ميسر، أخبار: ١٧١-١٧٢. كان الأمبراطور يرحلًا زمكيس (الشيخن) يرى أن الفاطميين أشدّ عدواة له من العبّاسيين. ستيفن رنيمان، تاريخ الحروب الصليبية ١: ٥٤-٥٥.

بري حين لاحق جيش ابن الصمصامة البيزنطيين حتى أبواب إنطاكية،
ويبالغ ابن الفلانسني حين يصف الجيش الفاطمي المتصمر وهو يعود برفقة
عشرة آلاف رأس من الروم وألفي أسير. وقد جرت المعركة الفاصلة قرب
أفامية عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م^(١٧٨).

والسهولة التي تخلى بها الفاطميون عن المغرب لم تكن ناجمة عن
ضعف في قواهم العسكرية والمادية، بل تعود ضمناً إلى اعتبارهم مرحلة
المغرب أولى حلقات مشروعهم مثلما كانت مصر المرحلة الثانية. ذلك
المشروع الذي يتضمّن إعادة ترتيب أوضاع العالم الإسلامي وفقاً لمنظور
الدعوة الفاطمية، وبناء دولة عظمى تتحكّم في طرق التجارة العالمية وتضع
نهاية للنفوذ البيزنطي^(١٧٩) عبر تحويل المتوسط وغرب آسيا إلى مجال
إقليمي يخصّ هذه الدولة الإسلامية.

بيد أن مجريات التاريخ لم تخدم هذه الإستراتيجية، ذلك أن الحامل
المادي الاجتماعي لها كان خاضعاً لاشتراطات تاريخية محدّدة. فكما
لاحظنا، كان الفاطميون مضطّرين إلى الاعتماد على المغاربة البربر الذين
حقّقوا لهم الخطوة الأولى المشار إليها والتي تضمّنت أيضاً السيطرة على
المتوسط والانطلاق من القاعدة الإستراتيجية صقليةً للتحكّم في أوربة
الجنوبية. كما أنجز المغاربة الخطوة المصرية. غير أنهم أخفقوا في
المرحلة الثالثة والقاضية بالسيطرة على بلاد الشام، ولعلّ هذا الإخفاق حرّ
الذي قاد إلى تحطّم الاندفاع الفاطمي، وانعكس هذا الفشل إلى ردّ فعل
داخليّ تجلّى على شكل تفجّرات داخلية اجتماعية اقتصادية، وانحلال في
الدولة، وبالتالي انهيار متدرّج انتهى إلى قيام سلطة تتحكّم فيها قوى
وأفراد تنهي طموحاتهم بحدود الحفاظ على مصالحهم الشخصية، تماماً
كما هو الحال مع الخلافة العباسية التي تحوّلت إلى يافطة شرعية عمل

(١٧٨) ابن الفلانسني، ذيل: ٥١-٥٢.

(١٧٩) المقرئزي، المقتى ٣: ٩٥؛ وانظر: عبد المنعم ماجد، الملاقات: ١٠٦-١٠٧،

١١٦-١١٧؛ أ. ف. السيد: الدولة الفاطمية: ٨٥، ١٢٢، ١٣٣ - ١٣٤.

خلفها الغز الأتراك على تحقيق توسعهم وإقامة دويلاتهم.

ولعل أفراد المشروع الفاطمي بتوفير الأساس الإيديولوجي الدعائي المنظم يعتبر ميزة بالغة الأهمية، كان من الممكن، لو تهيأ لها الشرط السياسي المناسب، أن تجعل من الدولة الإسلامية العالمية حقيقة واقعة، سيما إذا لاحظنا أن الإطار النظري لهذه الدعوة لم يكن مغلقاً على قبيلة أو عنصر أو منطقة جغرافية، بل تميّز بانفتاحه رغم طبيعة النشاط السري ومصاعبه. ويعرّز هذا القول مبدأ التسامح الديني والفكري الذي اتّصفت به الدعوة على العموم.

وخلاصة القول إن الخلافة الفاطمية في مصر لم تكن في حالة تمكّنها من مواجهة الأخطار الخارجية التي هدّدت مصيرها، وكان عليها أن تواجه الخطر السلجوقي منذ النصف الثاني للقرن الخامس/الحادي عشر^(١٨٠)، يليه الخطر الصليبي في أخريات هذا القرن. وكان من سوء حظّ الدولة الفاطمية في مصر أن الوجود الصليبي لم يكن مجرد اندفاع عسكري سياسي (للدولة البيزنطية المجاورة) قابلة لأن يردّ عليها بإجراء مماثل، بل كان وجوداً من نوع آخر، لم يقدر أبعاده ومخاطره لا المسلمون وحسب، بل والبيزنطيون أيضاً^(١٨١).

(١٨٠) ابن القلانسي، ذيل: ١٢١: ففي عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م يزحف ملكشاه السلجوقي بجيشه من أصفهان مروراً على قصد مصر لتملكها. وكان أبوه ألب أرسلان يطمح في الاستيلاء على بلاد الشام والقضاء على الدولة الفاطمية وقد أرسل جيشه إلى حلب لهذه الغاية عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م. وشكّل احتلال الأتراك على يد أتز التركماني لفلسطين ودمشق منذ عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م جزءاً من الخطة الأصلية. انظر: ابن القلانسي، ذيل: ٩٩؛ أبو المحاسن، التجوم: ٥؛ ٨٧؛ د. سهيل زكّار: ملخّل إلى تاريخ الحروب الصليبية: ٦٥ - ١٥٥.

(١٨١) ستيفن رنيمان، تاريخ الحروب الصليبية: ١؛ ١٨٤-١٨٥؛ ق.ع. قاسم: ماهية الحروب الصليبية: ١١ - ١٥؛ م. زايروف: الصليبيون في الشرق: ١٣ - ١٤.

المصادر والمراجع

- إبن الأثير (علي بن محمد): الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
- إبن تغري بردي (أبو المحاسن): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- إبن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- إبن دقماق (إبراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- إبن سعيد: المغرب في حلى المغرب، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٧٠.
- إبن الصيرفي (تاج الرئاسة علي): الإشارة إلى من نال الوزارة والقانون في ديوان الرسائل، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٠.
- إبن الطوير (أبو محمد): نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٩٢.
- إبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز (H.F. Amedroz)، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.
- إبن معاني (الأسعد): كتاب قوانين اللواوين، تحقيق عزيز سريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١.
- إبن ميسر (تاج الدين محمد بن علي): أخبار مصر، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة، ١٩٨١.
- رنسيان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد البار العربي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١.
- زابوروف (ميخائيل): الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو، ١٩٨٦.
- زگار (د. سهيل): مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٧٤.
- المجلات المستصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة.

- سرور (محمد جمال الدين): الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤.
- السيد (أيمن فؤاد): الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، القاهرة، ١٩٩٢.
- قاسم (قاسم عبده): ماهية الحروب الصليبية، الكويت، ١٩٩٠.
- القلقشندي (أبو العباس): صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٠-١٩٢٠.
- ماجد (عبد المنعم): العلاقات بين الشرق والغرب، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦.
- المقريزي (تقي الدين أحمد): إتماظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٧٣.
- المقريزي (تقي الدين أحمد): إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، ١٩٥٧.
- المقريزي (تقي الدين أحمد): الخطط المقريزية، مكتبة إحياء العلوم، الشياح (لبنان)، د.ت.
- المقريزي (تقي الدين أحمد): المقتنى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.
- ناصر خسرو: سفرنامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٧٠.